# أسرار النظم القرآني

## في الحديث عن استماع المؤمنين للقرآن الكريم وتلاوته

إعداد

د / محمد عبود جاد عبدالجليل مرعي
مدرس البلاغة والنقد
في كلية اللغة العربية فرع جامعة الأزهر
بإيتاي البارود

١٤٤٢هـ = ٢٠٢١م

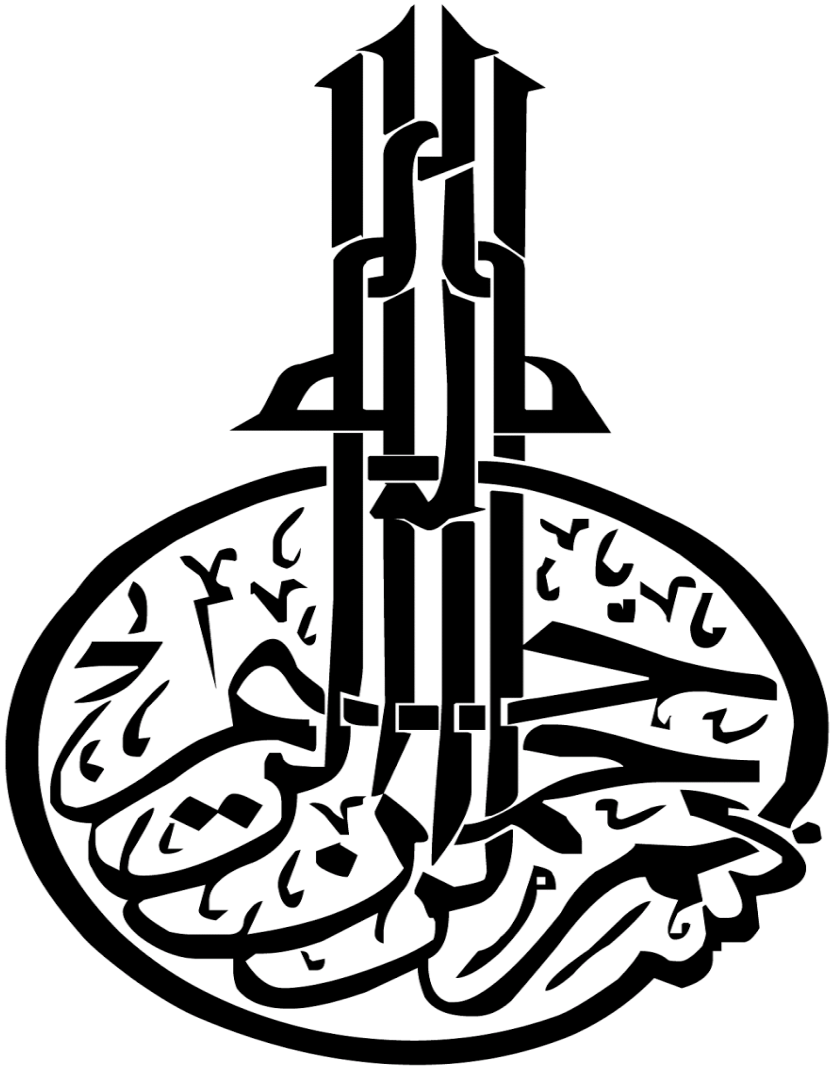

# أسرار النظم القرآني في الحديث عن استماع المؤمنين للقرآن الكريم وتلاوته

**د. محمد عبود جاد عبدالجليل مرعي**

مدرس البلاغة والنقد -كلية اللغة العربية بإيتاي البارود-جامعة الأزهر- جمهورية مصر العربية.

البريد الإلكتروني:

**Mohamedabood.2034@azhar.edu.eg**

## ملخص البحث:

هذا بحث بعنوان: (أسرار النظم القرآني في الحديث عن استماع المؤمنين للقرآن الكريم وتلاوته)، قمت فيه بجمع الآيات التي تحدثت عن المؤمنين، وهم يستمعون القرآن، وحللتها تحليلا بلاغيا بينت فيه روعة النظم القرآني، وبلاغته العالية التي هي أعلىٰ مراتب البلاغة، وكيف توافر لهذه البلاغة كل مقومات الجمال من صفاء للكلمة، ودقة في التركيب، وروعة في النظم.

وقد قسمت البحث إلىٰ مقدمة، وتمهيد، وتسعة مقامات، وخاتمة، وفهرس للمصادر والمراجع، وفهرس للموضوعات.

المقدمة، بينت فيها أسباب اختياري للموضوع، والمنهج المتبع في دراسته.

**التمهيد**: بينت فيه الفرق الدلالي بين الاستماع والانصات.

أما مقامات دراسة الآيات، فرتبتها علىٰ حسب ترتيب الآيات في المصحف، ومن ثم جاءت علىٰ النحو الآتي:

**المقام الأول**: فيض العين من الدمع.

**المقام الثاني**: وجل القلب وزيادة الإيمان.

**المقام الثالث**: السجود تعظيما لله، والبكاء من خشيته، والخشوع له.

**المقام الرابع**: تواضع المؤمنين لربهم، وتعظيمهم لحرمات الله وشعائره.

**المقام الخامس**: استماع المؤمنين للقرآن الكريم بآذان واعية، وعيون مبصرة راعية.

**المقام السادس**: الحديث عن استماع المؤمنين من أهل الكتاب.

**المقام السابع**: الثناء علىٰ المؤمنين، والتعريض بالمشركين.

**المقام الثامن**: القشعريرة، والليونة عند الاستماع.

**المقام التاسع**: موقف الجن من استماع القرآن.

ثم جاءت الخاتمة بينت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث، ثم ذيلته بفهرسي المصادر والمراجع، وفهرس للموضوعات.

**الكلمات المفتاحية**: للقرآن الكريم وتلاوته- في الحديث عن استماع المؤمنين- أسرار النظم القرآني.

# Secrets of Qur'anic systems in talking about the believers listening to and reciting the Qur'an

Dr. Mohamed Abboud Gad Abdul Jalil Merhi
Teacher of Rhetoric and Criticism -Faculty of Arabic Language at Itai Al-Baroud- Al-Azhar University - Arab Republic ofEgypt.
E-mail:Mohamedabood. 2034@azhar.edu.eg

**Abstract:**

This research entitled: (Secrets of the Qur'anic systems in talking about the listening of believers to the Qur'an and its recitation), in which I collected verses that spoke of believers listening to the Qur'an, and analyzed them rhetorically in which it showed the splendor of the Qur'anic systems, its high eloquence, and how this rhetoric has all the elements of beauty from the serenity of the word, accuracy in composition, and splendor in systems.

The research was divided into an introduction, a boot, nine denominators, a conclusion, an index of sources and references, and an index of topics.

The introduction, in which I outlined the reasons for my choice of subject and the approach to its study.

Boot: I knew the term listening, and showed the difference between it and the similar terms.

The shrines of the study of verses are arranged according to the order of the verses in the Qur'an, and therefore came as follows:

First place: the flood of tears.

The second place: the majesty of the heart and the increase of faith.

The third place: prostration in order to glorify God, cry from his fear, and fear him.

Fourth place: the humility of the believers to their Lord, and their glorification of God's sanctities and rituals.

The fifth place: the believers listen to the Qur'an with conscious ears, and eyes seen as shepherds.

6th place: Talk about listening to believers from the people of the book.

The seventh place: praise for the believers, and exposing the polytheists.

Eighth place: chills, softness when listening.

Ninth Place: Eighth Place: Ninth Place: The Position of the Jinn from listening to the Qur'an.

The conclusion then showed the most important findings of this research, followed by indexes of sources, references and an index of topics.

**Keywords:** For the Qur'an and its recitation - in talking about listening to believers- thesecrets of the Qur'anic systems.

## المقدمة

الحمد لله الذىٰ أنزل علىٰ عبده الكتاب، حجة علىٰ الخلق ظاهرة ومعجزة علىٰ الدهر باقية باهرة، والصلاة والسلام علىٰ خير خلقه سيدنا محمد النبي الأمي الذىٰ ما كان يتلو من قبله من كتاب ، ولا يخطه بيمينه ، فشرح الله صدره ، وأنطق بالوحي لسانه، فدعا إلىٰ الله علىٰ بصيرة ، وجاهد في سبيله بإحسان حتىٰ أتاه اليقين – ﷺ – وعلىٰ آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلىٰ يوم الدين .

أما بعد :

فإن أعظم ما تنفق فيه الأعمار، وتشغل فيه ساعات الليل والنهار ، مدارسة القرآن الكريم ، والعيش في ظلال آياته الوارفة ، وآفاق معانيه المتراحبة.

ولا شك في أن من أفضل ما يتدارسه الدارسون ، ويبحث فيه الباحثون في القرآن الكريم هو بلاغته ، التي عليها مدار الأمر في إعجازه ، هذا الإعجاز الذىٰ يعد أكبر الأدلة علىٰ صدق النبي ـ ﷺ ـ في رسالته ، وأمانته في تبليغ دعوته.

لذلك كانت دراسة هذه البلاغة ، والتنقيب عن أسرارها مما يملأ القلب بالإيمان ، ويغمره باليقين ؛ لأنها تظهر بوضوح أن هذا القرآن لا يستطيعه بشر، ولو بلغ من البلاغة غايتها ، وشارف من الفصاحة نهايتها ، كما قال – تعالىٰ –﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا

﴿ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ سورة الإسراء الآية : ٨٨

ومن المعلوم أن النبي ـ ﷺ ـ عندما أنزل عليه القرآن الكريم أمره الله بتبليغه إلىٰ الناس جميعًا، فقرأه عليهم، فمنهم من استمع إليه، فوجل قلبه ، واقشعر جلده، ومنهم من أعرض عنه، فختم علىٰ سمعه، وطبع علىٰ قلبه، وجعل علىٰ بصره غشاوة، فوصفوه بالسحر المبين، وأساطير الأولين، ومنهم من سخر به واستهزأ.

وقد جاءت آيات قرآنية كثيرة تصف أحوال هؤلاء المستمعين للقرآن الكريم ، وسوف يكتفي البحث – بمشيئة الله– بدراسة الآيات التي تصف أحوال استماع المؤمنين للقرآن الكريم دون الآيات التي تتعرض لوصف استماع الكافرين والمنافقين، ومن ثم جاء البحث بعنوان: أسرار النظم القرآني في الحديث عن استماع المؤمنين للقرآن الكريم وتلاوته.

**وقد دفعني إلى اختيار هذا الموضوع أسباب منها .**

**أولا:** أن عدد الآيات التي وصفت أحوال استماع المؤمنين كاف جدًّا لإقامة بحث بلاغي محدد الفكرة والموضوع؛ إذ بلغ عددها – فيما أعلم– إحدىٰ عشرة آية.

**ثانيا**: معرفة الأحوال، والمشاعر، والانفعالات النفسية التي تعتري أهل الإيمان عند استماعهم للقرآن بغية السير علىٰ نهجهم ودربهم.

**ثالثا:** كثرة الصور البلاغية التي اشتملت عليها تلك الآيات كثرة تلفت الأنظار ،فأردت الوقوف عليها مبينـًا أسرارها البلاغية.

**منهج البحث:**

وقد اعتمدت في بحثي هذا علىٰ المنهج التحليلي؛ ليقيني التام بأن الدراسة التحليلية لأسلوب البيان القرآني هي أقرب الدراسات إلي فهم هذا البيان الشريف، وأوفرها نفعا لما فيها من الاطلاع علي الأسرار، واللطائف المودعة في نظم القرآن الكريم.

**خطَّة البحث**

قسمت بحثي إلىٰ مقدمة بينت فيها أسباب اختيار الموضوع، والمنهج المتبع في دراسته، ثم تناولت في التمهيد تعريف كلمة الاستماع، والفرق الدلالي بينهٗ وبين غيره من المصطلحات التي تتداخل معه كالإنصات، والسماع، والسمع، ثم تحدثت عن فضل استماع القرآن الكريم، كما قمت بتصنيف الآيات محل الدراسة حسب السياق والمقام، وراعيت في ترتيبها ترتيب المصحف العثماني؛ ليكون أسهل علىٰ القارئ.

**وجاءت الدراسة البلاغية للآيات مشتملة على تسعة مقامات جاءت على النحو الآتي:**

**المقام الأول**: فيض العين من الدمع.

**المقام الثاني**: وجل القلب، وزيادة الإيمان.

**المقام الثالث**: السجود تعظيمًا لله، والبكاء من خشيته، والخشوع له.

**المقام الرابع**: تواضع المؤمنين لربهم، وتعظيمهم لحرمات الله، وشعائره.

**المقام الخامس**: استماع المؤمنين للقرآن الكريم بآذان واعية، وعيون مبصرة راعية.

**المقام السادس**: الحديث عن استماع المؤمنين من أهل الكتاب.

**المقام السابع**: الثناء علىٰ المؤمنين، والتعريض بالمشركين.

**المقام الثامن**: القشعريرة، والليونة عند الاستماع.

**المقام التاسع**: موقف الجن من استماع القرآن.

وقد درست كل آية في مقامها فذكرت سبب نزولها إن وجد، ثم بينت معناها الإجمالي، وبينت المقصد الأعظم من السورة التي تنتمي إليها، ثم علاقة الآية بالمقصد العام للسورة والسياق الذي وردت فيه ، ثم علاقة الآية بما قبلها، ثم شرعت في التحليل البلاغي.

**الخاتمة :** بينت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث.

**الفهارس**: وتشتمل علىٰ: فهرس المصادر والمراجع. – فهرس الموضوعات.

# التمهيد:

**ويشتمل على:**

**أولا:** الدلالة المعجمية لكلمة( الاستماع).

**ثانيا:** الفرق الدلالي بين (الاستماع والسماع).

**ثالثا:** الفرق الدلالي بين( الاستماع والسمع).

**رابعا:** الفرق الدلالي بين(الاستماع والإنصات).

**خامسا:** بيان فضل استماع القرآن الكريم.

**أولا: الدلالة المعجمية لكلمة( الاستماع):**

ورد في معجم مقاييس اللغة أنَّ السين، والميم، والعين أصلٌ واحدٌ، وهو إيناسُ الشيء بالأُذُن[1]، وهو مصدر الفعل الخماسي استمع، يدل على الإصغاء يقال: استمع له أي أصغى[2].

وقد فرق علماء اللغة بين الاستماع، وغيره من المصطلحات التي تتشابه معه في المعنى، حيث فرقوا بين دلالة الاستماع والسماع، ودلالة الاستماع والسمع، وفرقوا بين دلالة الاستماع والإنصات.

**ثانيا: الفرق الدلالي بين( الاستماع والسماع).**

قال صاحب المصباح المنير: « الاستماع لما كان بقصد؛ لأنه لا يكون إلا بالإصغاء، وسمع يكون بقصد وبدونه، والسماع اسم منه، فأنا سميع، وسامع، وأسمعت زيدا أبلغت فهو سميع»[3].

(١)مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارِس بن زكَرِيّا، تحقيق : عبد السَّلام محمد هَارُون الناشر : اتحاد الكتاب العرب، الطبعة : ١٤٢٣ هـ = ٢٠٠٢م،مادة( سمع).

(٢)لسان العرب: لابن منظور الأنصاري الإفريقي (المتوفى: ٧١١هـ)الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤ هـ، مادة( سمع) ، ومختار الصحاح، لزين الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: ٦٦٦هـ)، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م، مادة( سمع).

(٣)المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، لأحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، لأبي العباس (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ)الناشر: المكتبة العلمية – بيروت، مادة(سمع).

قال أبو هلال العسكري: « قلت: ويؤيده قوله – تعالىٰ-: " ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾[سورة الأعراف آية:٢٠٤ ] إشارة إلىٰ قصدهم إلىٰ ذلك، وميلهم إلىٰ السماع الخالي عن القصد»[١].

**ثالثا: الفرق الدلالي بين (الاستماع والسمع).**

الاستماع: هو استفادة المسموع بالإصغاء إليه ليفهم[٢] ، ولهذا لا يقال: «إنَّ الله يستمع، والاستماع: أخص من السَّمع؛ لأنَّه إنما يكون بقصد ونية، أو توجيه الحاسة إلىٰ الكلام لإدراكه، أما السمع، فيحصل ولو بغير قصد»[٣]،«والسَّماع يكون اسمًا للمسموع، يقال لما سمعته من الحديث هو سماعي، ويقال للغناء سماع، ويكون بمعنىٰ السمع، تقول: سمعت سماعا، كما تقول سمعت سمعا، والتسمع طلب السمع مثل التعلم طلب العلم[٤].

(١)الفروق اللغوية، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيىٰ بن مهران العسكري (المتوفىٰ: نحو ٣٩٥هـ)تحقيق: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ «قم»، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٢هـ،ص٤٩.

(٢)السابق،ص٤٩ ،٥٠.

(٣)تفسير المراغي لأحمد بن مصطفىٰ المراغي (المتوفىٰ: ١٣٧١هـ)،الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الأولىٰ، ١٣٦٥ هـ – ١٩٤٦ م،ج٩/ ١٥٤.

(٤)الفروق اللغوية، ص٤٩ ،٥٠.

**رابعا: الفرق الدلالي بين الاستماع والإنصات.**

الاستماع: « هو استفادة المسموع بالاصغاء إليه ليفهم [1]،والإِنْصاتُ هو السكوتُ، والاسْتِماعُ للحديث يقول: أَنْصِتُوه وأَنْصِتُوا له؛ حتىٰ لا يكون شاغل عن الإحاطة بكل ما يقرأ، [2]، ومنه قول النبي -ﷺ-:« مَنِ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَغَسَلَ، وَغَدَا وَابْتَكَرَ، وَمَشَىٰ وَلَمْ يَرْكَبْ، وَدَنَا مِنَ الْإِمَامِ، وَأَنْصَتَ وَلَمْ يَلْغُ، كَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ عَمَلُ سَنَةٍ»[3]

ومنه قول القائل:

إِذا قالــت حَــذامِ فأَنْصِــتُوها ... فإِنَّ القـولَ مـا قالَـتْ حَـذامِ[4]

ЖЖЖЖ

**خامسا: فضل استماع القرآن الكريم.**

القرآن الكريم هو كتاب الله – عزوجل- المتعبد بتلاوته المكتوب بين دفتي المصحف المنزل علىٰ سيدنا محمد خاتم الأنبياء، والمرسلين بواسطة أمين الوحي جبريل، قد خصه الله- عزوجل- بكثير من الأحكام

---

(١)الفروق اللغوية ص٤٩.

(٢)لسان العرب، مادة( نصت).

(٣)المجتبىٰ من السنن، لأحمد بن شعيب أبي عبد الرحمن النسائي، تحقيق : عبدالفتاح أبو غدة، الناشر : مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب الطبعة الثانية ، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م،ج٣/ ٩٧.

(٤)مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لعبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن يوسف، أبي محمد، جمال الدين، ابن هشام (المتوفىٰ: ٧٦١هـ) تحقيق: د. مازن المبارك / محمد علي حمد الله، الناشر: دار الفكر – دمشق، الطبعة: السادسة، ١٩٨٥،٢٩١.ص٢٩١.

التي تتعلق بفضل حفظه، وفضل تلاوته، وفضل سماعه، والعمل به، وفيما يخص فضل استماع القرآن الكريم علىٰ وجه الخصوص، فقد بين ربنا – سبحانه– أن من أسباب تنزل الرحمات الاستماع، والإنصات إليه عندما يقرأ، فقال: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[سورة الأعراف آية:٢٠٤ ] فهذه الآية« دلالة علىٰ الطريقة الموصلة لنيل الرحمة بالقرآن، والحصانة من نزغ الشيطان، وهي الاستماع له إذا قرئ، والإنصات مدة القراءة، والاستماع أبلغ من السمع، ولأنه إنما يكون بقصد، ونية، وتوجيه الحاسة إلىٰ الكلام؛ لإدراكه، والسمع ما يحصل ولو بغير قصد، والإنصات: السكوت لأجل الاستماع، حتىٰ لا يكون شاغلا عن الإحاطة بكل ما يقرأ، فمن استمع، وأنصت كان جديرا بأن يفهم، ويتدبر، وهو الذي يرجىٰ أن يرحم، والآية تدل علىٰ وجوب الاستماع، والإنصات للقرآن إذا قرئ، قيل مطلقا سواء كانت القراءة في الصلاة، أو خارجها»(١).

كما أن استماع القرآن سبب لهداية الإنس، ويدل علىٰ هذا قوله– تعالىٰ:﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ

(١)المنار لمحمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن ملا علي خليفة القلموني الحسيني (المتوفىٰ: ١٣٥٤هـ)،الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر: ١٩٩٠ م،ج٩/ ٢٠٤.

هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ﴾[سورة الزمر آية:١٧ – ١٨ ] لما أخبر أنَّ لهم البشرىٰ، أمره الله ببشارتهم، وذكر الوصف الذي استحقوا به البشارة، فقال: ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ ﴾ ،وهذا جنس يشمل كل قول فهم يستمعون جنس القول؛ ليميزوا بين ما ينبغي إيثاره، وما ينبغي اجتنابه، فلهذا من حزمهم، وعقلهم أنهم يتبعون أحسنه، وأحسنه علىٰ الإطلاق كلام الله، وكلام رسوله[1]، كما قال في هذه السورة: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا .... ﴾[سورة الزمر آية:٢٣ ]

وقد جعل الله – سبحانه وتعالىٰ- استماع القرآن سببا لهداية الجن، ودخولهم في الإسلام، حيث قال _ تعالىٰ- ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ [سورة الجن آية:١-٢ ]

وجدير بالذكر أن النبي-ﷺ- كان يستمع القرآن من صحابته الكرام، فكان يجتمع معهم؛ ليقرأ عليهم القرآن، ويقرأوه عليه، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود- رضي الله عنه-، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: اقْرَأْ عَلَيَّ ، قَالَ : قُلْتُ أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ، قَالَ إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي قَالَ فَقَرَأْتُ النِّسَاءَ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغْتُ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا

(١)تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفىٰ: ١٣٧٦هـ)تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق ، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولىٰ ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠ م،ص٧٢١.

بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾[ سورة النساء آية: ٤١] قَالَ لِي كُفَّ ، أَوْ أَمْسِكْ - فَرَأَيْتُ عَيْنَيْهِ تَذْرِفَانِ[١].

الذي يلاحظ من هذا الحديث خشوع قلب النبي-ﷺ- وبكاء عينيه لاستماع القرآن، وتدبر معانيه.

وقد رتب الصحابي الجليل عبدالله بن عباس – رضي الله عنهما- علىٰ استماع القرآن الكريم أجرًا كبيرًا، فقال: «مَنِ اسْتَمَعَ آيَةً مِنْ كِتَابِ اللهِ كَانَتْ لَهُ نُورًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[٢].

وفي الصفحات القادمة – بمشيئة الله- سوف يعرض البحث الآيات التي تحدثت عن استماع المؤمنين للقرآن الكريم، وتلاوته في سياقها، ومقامها من البيان القرآني متناولاً إياها بالدراسة البلاغية التحليلية للوقوف علىٰ أسرارها.

(١)الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم وسننه وأيامه، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة ، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٢هـ،بَابُ {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا} [النساء: ٤١] "،حديث رقم٤٥٨٣،ج٦/ ٤٥.

(٢)المصنف لأبي بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (المتوفىٰ: ٢١١هـ)،تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي لناشر: المجلس العلمي- الهند، الطب الثانية ١٤٠٣هـ، ج٣/ ٣٧٣.

## المقام الأول: فيض العين من الدمع

**وردت هذه الحالة في سياق الحديث عن المؤمنين من النصارى، وذلك في سورة المائدة.**

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُوا۟ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ سورة المائدة رقم الآية: [٨٣- ٨٥].

**المعنى العام.**

وردت هذه الآيات في سورة المائدة في معرض الحديث عن وصف الذين ءامنوا من هؤلاء النصارىٰ الذين ذكرهم الله أنهم أقرب الناس مودة للمؤمنين، إنهم إذا سمعوا ما أنزل إلىٰ الرسول من هذا القرآن «اهتزت مشاعرهم ، ولانت قلوبهم ، وفاضت أعينهم بالدمع تعبيرا عن التأثر العميق بالحق الذي سمعوه، والذي لا يجدون له في أول الأمر كفاء من التعبير إلا الدمع الغزير – وهي حالة معروفة في النفس البشرية حين يبلغ بها التأثر درجة أعلىٰ من أن يفي بها القول ، فيفيض الدمع ، ليؤدي ما لا يؤديه القول، وليطلق الشحنة الحبيسة من التأثر العميق العنيف، ثم هم لا يكتفون بهذا الفيض من الدمع، ولا يقفون موقفًا سلبيًا من الحق الذي تأثروا به هذا التأثر عند سماع القرآن، والشعور بالحق الذي يحمله، والإحساس بما له من سلطان، إنهم لا يقفون موقف المتأثر الذي تفيض عيناه بالدمع، ثم ينتهي أمره مع هذا الحق، إنما هم يتقدمون؛ ليتخذوا من هذا الحق موقفًا إيجابيًا

صريحًا موقف القبول لهذا الحق ، والإيمان به ، والإذعان لسلطانه ، وإعلان هذا الإيمان، وهذا الإذعان في لهجة قوية عميقة صريحة، إنهم أولا يعلنون لربهم إيمانهم بهذا الحق الذي عرفوه،ثم يدعونه – سبحانه – أن يضمهم إلىٰ قائمة الشاهدين لهذا الحق، وأن يسلكهم في سلك الأمة القائمة عليه في الأرض .. الأمة المسلمة ، التي تشهد لهذا الدين بأنه الحق ، وتؤدي هذه الشهادة بلسانها، وبعملها، وبحركتها لإقرار هذا الحق في حياة البشر، فهؤلاء الشاهدون الجدد ينضمون إلىٰ هذه الأمة المسلمة، ويشهدون ربهم علىٰ إيمانهم بالحق الذي تتبعه هذه الأمة، ويدعونه – سبحانه – أن يكتبهم في سجلها، ثم هم بعد ذلك يستنكرون علىٰ أنفسهم أن يعوقهم معوق عن الإيمان باللّه، أو أن يسمعوا هذا الحق، ثم لا يؤمنوا به ، ولا يأملوا – بهذا الإيمان – أن يقبلهم ربهم ، ويرفع مقامهم عنده ، فيدخلهم مع القوم الصالحين، ثم إنَّه اللّه لما علم صدق قلوبهم، وألسنتهم، وصدق عزيمتهم علىٰ المضي في الطريق، وصدق تصميمهم علىٰ أداء الشهادة لهذا الدين الجديد الذي دخلوا فيه، ولهذا الصف المسلم الذي اختاروه منهم هذا كله قبل منهم قولهم ، وكتب لهم الجنة جزاء لهم وشهد لهم – سبحانه – بأنهم محسنون ، وأنه يجزيهم جزاء المحسنين »[1].

**سبب نزول الآيات**

ذهب غير واحد من المفسرين إلىٰ أن الآيات الكريمات نزلت في وفد من قساوسة النصارىٰ هم النجاشي وأصحابه.

(١)في ظلال القرآن: لسيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفىٰ: ١٣٨٥هـ)،الناشر: دار الشروق – بيروت– القاهرة، الطبعة: السابعة عشر – ١٤١٢ هـ، ج٢/ ٩٦٢، ٩٦٣.

قال الإمام البغوي : « الْآيَةُ فِيمَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ مِثْلُ النَّجَاشِيِّ وَأَصْحَابِهِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ- رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- فِي رِوَايَةِ عَطَاءٍ: «يُرِيدُ النَّجَاشِيَّ وَأَصْحَابَهُ قَرَأَ عَلَيْهِمْ جَعْفَرٌ بِالْحَبَشَةِ كهيعص، فَمَا زَالُوا يَبْكُونَ حَتَّىٰ فَرَغَ جَعْفَرٌ مِنَ الْقِرَاءَةِ». (١).

وقال ابن عطية : « وذكر سعيد بن جبير، ومجاهد، وابن عباس أنَّ هذه الآية نزلت بسبب وفد بعثهم النجاشي إلىٰ رسول الله- صلىٰ الله عليه وسلم- ليروه ويعرفوا حاله، فقرأ النبي- صلىٰ الله عليه وسلم- عليهم القرآن وآمنوا ورجعوا إلىٰ النجاشي فآمن». (٢).

وقال القرطبي: « وَهَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي النَّجَاشِيِّ، وَأَصْحَابِهِ لَمَّا قَدِمَ عَلَيْهِمُ الْمُسْلِمُونَ فِي الْهِجْرَةِ الْأُولَىٰ حَسَبَ مَا هُوَ مَشْهُورٌ فِي سِيرَةِ ابْنِ إِسْحَاقَ وَغَيْرِهِ- خَوْفًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَفِتْنَتِهِمْ، وَكَانُوا ذَوِي عَدَدٍ،ثُمَّ هَاجَرَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-إِلَىٰ الْمَدِينَةِ بَعْدَ ذَلِكَ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَىٰ الْوُصُولِ إِلَيْهِ، حَالَتْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَسُولِ اللهِ-ﷺ- الْحَرْبُ، فَلَمَّا كَانَتْ وَقْعَةُ بَدْرٍ وَقَتَلَ اللهُ فِيهَا صَنَادِيدَ الْكُفَّارِ، قَالَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ: إِنَّ ثَأْرَكُمْ بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ، فَاهْدُوا إِلَىٰ النَّجَاشِيِّ، وَابْعَثُوا إِلَيْهِ رَجُلَيْنِ مِنْ ذَوِي رَأْيِكُمْ لَعَلَّهُ يُعْطِيكُمْ مَنْ عِنْدَهُ، فَتَقْتُلُونَهُمْ بِمَنْ قُتِلَ مِنْكُمْ بِبَدْرٍ، فَبَعَثَ كُفَّارُ قُرَيْشٍ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ، وَعَبْدَ

(١)معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، لمحيي السنة، أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفىٰ: ٥١٠هـ)،حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر – عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م،ج٣/ ٨٥.

(٢)المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفىٰ: ٥٤٢هـ)تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت،ج٢/ ٢٢٧.

اللهِ بْنَ أَبِي رَبِيعَةَ بِهَدَايَا، فَسَمِعَ النَّبِيُّ -ﷺ- بِذَلِكَ، فَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ- عَمْرَو بْنَ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيَّ، وَكَتَبَ مَعَهُ إِلَىٰ النَّجَاشِيِّ، فَقَدِمَ عَلَىٰ النَّجَاشِيِّ، فَقَرَأَ كِتَابَ رَسُولِ اللهِ -ﷺ-، ثُمَّ دَعَا جَعْفَرَ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَالْمُهَاجِرِينَ، وَأَرْسَلَ إِلَىٰ الرهبان، والقسيسين فجمعهم، ثم أمر جعفر أَنْ يَقْرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ، فَقَرَأَ سُورَةَ (مَرْيَمَ) فَقَامُوا تَفِيضُ أَعْيُنُهُمْ مِنَ الدَّمْعِ، فَهُمُ الَّذِينَ أَنْزَلَ اللهُ فِيهِمْ" وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قالُوا إِنَّا نَصارىٰ " وَقَرَأَ إِلَىٰ" الشَّاهِدِينَ». (١).

**المقصد الأعظم لسورة لمائدة**

سورة المائدة من السور المدنية [إلا آية ٣ نزلت بعرفات في حجة الوداع]، وهي مائة وعشرون آية [نزلت بعد الفتح] ، ترتيبها الخامس في المصحف العثماني، تسمىٰ سورة العقود، وتسمىٰ – أيضا– سورة المنقذة(٢)، ومدار السورة من أولها إلىٰ آخرها قائم علىٰ أمر واحد هو التأكيد علىٰ حفظ العهود، والمواثيق، والوفاء بها، كما قال الله – تعالىٰ–

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾

(١)الجامع لأحكام القرآن ،لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفىٰ: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م،ج٦/ ٥٥.

(٢)التحرير والتنوير «تحرير المعنىٰ السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفىٰ : ١٣٩٣هـ)، الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس سنة النشر: ١٩٨٤ هـ، ج٦/ ٦٩.

[ سورة المائدة آية: ١ ]سواء من ذلك ما اتصل بتوحيد الله، وشرائع الاسلام من عقود كعقد الصلاة، وعقد البيع والشراء، وعقد حفظ النفس، والأموال، وغيرها من العقود التي نصت عليها السورة،« والظاهر أنها عقود الله عليهم في دينه من تحليل حلاله، وتحريم حرامه ، وأنه كلام قدم مجملا ثم عقب بالتفصيل »(١).

وقد دل مطلع السورة بألفاظه، وتراكيبه علىٰ مقصدها، حيث ذكر الإمام البقاعي – رحمه الله–: «أن مقصودها هو الوفاء بما هدىٰ إليه الكتاب، ودل عليه ميثاق العقل من توحيد الخالق، ورحمة الخلائق؛ شكرًا لنعمه، واستدفاعًا لنقمة، وقصة المائدة أدل ما فيها علىٰ ذلك، فإنَّ مضمونها أن من زاغ عن الطمأنينة بعد الكشف الشافي، والإنعام الوافي نوقش الحساب، فأخذه العذاب، وتسميتها بالعقود أوضح دليل علىٰ ما ذكرت من مقصودها»(٢).

وقد كان الإمام البقاعي –رحمه لله– ملتفتا إليه عند بيان الوجه في بعض تراكيب السورة، يقول:« ولما كان مدار هذه السنة علىٰ الزجر، والإحجام

(١)الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفىٰ: ٥٣٨هـ)الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ،ج١/ ٦٠١.

(٢)مَصَاعِدُ النَّظَرِ للإِشْرَافِ عَلَىٰ مَقَاصِدِ السُّوَرِ، ويُسَمَّىٰ: "المَقْصِدُ الأَسْمَىٰ في مُطَابَقَةِ اسْمِ كُلِّ سُورَةٍ لِلمُسَمَّىٰ"، لإبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفىٰ: ٨٨٥هـ) دار النشر: مكتبة المعارف – الرياض، الطبعة: الأولىٰ ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٧ م،ج٢/ ١٠٦.

عن أشياء اشتد الفهم لها، والتفاتهم إليها، وعظمت فيها رغباتهم من الميتات، وما معها، والأزلام والذبح علىٰ النصب، وأخذ الإنسان بجريمة الغير، والفساد في الأرض، والسرقة، والخمر، والسوائب، والبحائر – إلىٰ غير ذلك؛ ذكّر في أولها بالعهود التي عقدوها علىٰ أنفسهم ليلة العقبة، حين تواثقوا علىٰ الإسلام من السمع ،والطاعة في المنشط، والمكره، والعسر ،واليسر فيما أحبوا، وكرهوا، وختم الآية بقوله معللاً: {إنَّ الله} أي ملك الملوك {يحكم ما يريد } »[1]

**علاقة الآية محل الدراسة بمقصد السورة**

لا شك أنَّ العلاقة قوية بين الآيات الكريمة، ومقصود السورة، فهي تعمل في نفس السياق الذي تسير فيه سورة المائدة من تقرير العقيدة الصحيحة، والاهتمام بأمور التوحيد، حيث إنَّ سماع بعض النصارىٰ آيات من القرآن هداهم إلىٰ تحقيق التوحيد، والنطق به مما أدخلهم في جماعة المؤمنين، وهذا يناسب مطلع السورة، حيث إنها افتتحت بنداء المؤمنين في قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ ﴾ ، ولفظ المؤمنين يعم المؤمنين عامة، ومؤمني أهل الكتاب خاصة، «إذ بينهم، وبين الله عقد في أداء الأمانة فيما في كتابهم من أمر محمد-ﷺ- »[2].

(١)نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لإبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفىٰ: ٨٨٥هـ)، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ج٦/ ٧.

(٢)المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفىٰ: ٥٤٢هـ)تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولىٰ – ١٤٢٢ هـ.ج٢/ ١٤٢.

**علاقة الآيات بما قبلها**

لما ذكر المولىٰ – سبحانه وتعالىٰ – في الآيات السابقة ﴿ * لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ صفات اليهود الخبيثة، والمشركين، وعدم إيمانهم بما جاء به النبي –ﷺ– وأنهم أشد الناس علىٰ وجه الأرض عداوة للمؤمنين، وأبطل زيف عقيدة النصارىٰ في التثليث، وتأليه المسيح، ذكر في تلك الآيات موقفهم في العداوة، والمحبة من المؤمنين، فعلىٰ أنَّ اليهود في غاية العداوة للمسلمين نص علىٰ أنَّ قومًا من النصارىٰ آمنوا بالله، ورسوله هم أقرب الناس ألفة، ومحبة ووِدادًا لأهل الإيمان، وأنهم تفيض أعينهم دمعًا؛ مما عرفوا من الحق عندما سمعوا القرآن الذي أنزل علىٰ الرسول محمد –ﷺ– .

**التحليل البلاغي.**

قوله: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ ﴾ أتىٰ معطوفا علىٰ قوله: ﴿ وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ وهو من باب عطف جملة علىٰ جملة، وقد سوغ العطف بينهما وجود التناسب، حيث يفهم من عدم اتصافهم بالكبر التواضع، والاستماع إلىٰ ما أنزل علىٰ الرسول من كلام رب العالمين.

والضمير في قوله: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ﴾ يعود علىٰ قوله -تعالىٰ- : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ ﴾ بعد أن عرفوا الحق وآمنوا به.

والآيـــــة ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ ﴾ كناية عن رقة قلوبهم، وشدة خشيتهم، ومسارعتِهم إلىٰ قبول الحق، وعدم إبائهم إياه، حيث إنهم تأثروا تأثرا عظيما عند سماعهم بكلام اللّه - تعالىٰ - تأثروا تأثرا يجعلهم يبكون، ويسجدون، وتقشعر جلودهم ، وتوجل قلوبهم ، وتلين نفوسهم.

وقد بنيت الآية علىٰ أسلوب شرط أداته ﴿ إِذَا ﴾ الظرفية الشرطية الموضوعة في اللغة لما يستقبل من الزمان الدالة علىٰ تحقق وقوع الشرط؛ لأن سماعهم القرآن من النبي- صلىٰ الله عليه وسلم - أمر قد تحقق وقوعه، ويؤكد ذلك وقوع فعل الشرط فعلا ماضيا(سَمِعُواْ)؛ « لأن لفظ الماضي لا يدع الخاطر يحوم في أفق الانتظار، وإنما يلج به قلب الحقيقة التي شملته وأحاطت به»[1].و يحتمل أن يكون سماعهم للقرآن الذي أنزل علىٰ النبي - صلىٰ الله عليه وسلم- تم عن طريق الاستماع منه ذاتيًّا، ويؤكد ذلك كلام من قال: «إن الآية نزلت في وفد نصارىٰ نجران»[2] حين جاءوا إلىٰ النبي -ﷺ- فقرأ عليهم تلك الآيات، فأسلموا ، ويمكن أن يكون السماع تم عن طريق أصحابه، قال ابن عَبَّاس -رضي الله عنهما- : « كان رَسُول الله -

(١)خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني، المؤلف: محمد محمد أبو موسىٰ، الناشر: مكتبة وهبة، الطبعة: السابعة،١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م،ص٢٦٨.

(٢)التفسير الوسيط للزحيلي : د وهبة بن مصطفىٰ الزحيلي الناشر: دار الفكر – دمشق الطبعة : الأولىٰ – ١٤٢٢ هـ،ج١/ ٤٨٨.

ﷺ- وهو بمكة يخاف علىٰ أصحابه من المشركين ، فبعث جعفر بن أبي طالب ، وابن مسعود ، في رَهطٍ من أصحابه إلىٰ النجاشي ، وقال : « إنه ملكٌ صالحٌ ، لا يَظلم ولا يُظلم عنده أحدٌ ، فاخرجوا إِليهِ حتىٰ يجعل الله للمسلمين فرجًا، فلما وردوا عَلِيهِ أكرمهم، وقال لهم : هَلْ تعرفون شيئًا مما أنزل عليكم ؟ قالوا: نعم ، قَالَ : اقرأوا، فقرأوا وحوله القسِّيسون والرهبان ، فكلما قرأوا آيةً انحدرت دموعهم، مِمَّا عرفوا مِنْ الحق ، قَالَ الله – تَعَالَىٰ-: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (١).

وتقييد الفعل ﴿سَمِعُواْ﴾ باسم الموصول ﴿ مَآ﴾ فيه تفخيم، وتعظيم لشأن القرآن؛ لأنه كلام الله الذي أنزله علىٰ رسوله.

ولك أن تتأمل امتداد الصوت في حرف الألف في ﴿ مَآ﴾؛ ليظل هذا التفخيم، والتعظيم للقرآن ممتدًا إلىٰ أن يرث الله، والأرض ومن عليها.

ومجيء جملة الصلة ﴿ أُنزِلَ﴾ فعلا ماضيا فيه دلالة علىٰ تحقق الوقوع، فضلا علىٰ ذلك، فلأنَّ التعبير بفعل الإنزال فيه دليل علىٰ أن القرآن مصدره من عند الله، لا من عند رسوله، وحذف الفاعل للعلم به، فلا يخفىٰ

(١)أسباب النزول، تأليف : أبي الحسن علي بن أحمد النيسابوري، تحقيق: كمال بسيوني زغلول، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١١ هـ،ص١٣٦.

علىٰ ذي عقل أن فاعل الإنزال هو الله – تبارك وتعالىٰ– ، وفيه دلالة علىٰ أن شرف المنزَّل من شرف المنزِّل.

والتعبير بحرف الانتهاء﴿ إِلَىٰ ﴾ في قوله: ﴿ إِلَى ٱلرَّسُولِ ﴾ ؛ فيه إشارة إلىٰ أن القرآن انتهىٰ أمره إلىٰ رسوله– صلىٰ الله عليه وسلم –عن طريق جبريل، ليقوم النبي– صلىٰ الله عليه وسلم – بتبليغه للناس، وليقرآه علىٰ مسامعهم.

وقد عبر القرآن بلفظ ﴿ ٱلرَّسُولِ ﴾ دون ضمير الخطاب، فلم يقل: (بما أنزل إليك)؛ كما نص في آيات أخرىٰ ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ ﴾ ؛لأن المقام مقام دعوة غير المسلمين من النصارىٰ والمشركين، فيكون الأولىٰ فيه النص علىٰ ذكر المهمة التي بعث الرسول – صلىٰ الله عليه وسلم – من أجلها، وهي تبليغ ما أنزل إليه إلىٰ الناس كافة، وفيه تأكيد علىٰ عالمية رسالته مع ما في النص علىٰ تلك الصفة من التعظيم، والتشريف، والتكريم لحبيبنا بذكر ما فضله الله به.

وقد دل التعبير بالفعل﴿ تَرَىٰٓ ﴾ في قوله تعالىٰ:﴿ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ ﴾ علىٰ الرؤية البصرية التي هي أقوىٰ أسباب العلم الحسىٰ؛ مبالغة في مدحهم، حيث يراهم الرائي، وهم علىٰ تلك الصورة من رقة القلب، وشدة التأثر عند سماع الحق، وذلك لأنهم كانوا يحسون قبل معرفة الحق أنهم في ظلام

وضلال، فلما سمعوا الحق أشرقت له نفوسهم، ودخلوا في نوره، وهدايته، وأعينهم تتدفق بالدموع من شدة تأثرهم به، وحبهم له(١).

و﴿ تَفِيضُ﴾ من الفيض، وهو انصباب عن امتلاء: يقال: فاض الإناء، إذا امتلأ حين سال من جوانبه، وفاض الماء، والدَّمعُ، ونحوهما يَفِيض فَيْضًا وفُيُوضةً وفُيُوضًا، وفَيَضانا، وفَيْضُوضةً، أَي كثر حتىٰ سالَ علىٰ ضَفّةِ الوادي، وفاضَتْ عينُه تَفِيضُ فَيْضًا إِذا سالت، ويقال: أَفاضَتِ العينُ الدمعَ تُفِيضُه إِفاضة، وأَفاضَ فلان دَمْعَه(٢).

ويعد إسناد الفعل ﴿ تَفِيضُ﴾ إلىٰ الضمير المستتر العائد علىٰ أعينهم من باب المجاز العقلي، لعلاقة المكانية، إذ يستحيل علىٰ العين أن تفيض، ولا يمكن لها ذلك، وإنما هي مكان للفيض، فشبهت بالإناء الذي يفيض ماؤه، ولعل السر البلاغي في هذا المجاز يرجع إلىٰ المبالغة في كثره سيلان الدموع من أعينهم، حتىٰ يخيل للرائي أن أعينهم هي التي تفيض، وأنها تنهمر بالدموع انهمارًا، وهذا فيه دلالة علىٰ شدة تأثرهم بآيات القرآن ، وأحكامه، وما نطق به من الحق.

وقد أجاد صاحب الكشاف في تصوير معنىٰ الفيض، فقال: « فإن قلت: ما معنىٰ قوله: تَفِيضُ؟ قلت: معناه تمتلئ من الدمع حتىٰ تفيض؛ لأن الفيض أن يمتلئ الإناء، أو غيره حتىٰ يطلع ما فيه من جوانبه، فوضع الفيض

(١): التفسير الوسيط للقرآن الكريم أ.د: محمد سيد طنطاوي، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، الطبعة: الأولىٰ، ١٩٩٧م،ج٤/ ٢٥٦.

(٢)لسان العرب: مادة (فيض).

الذي هو من الامتلاء موضع الامتلاء، وهو من إقامة المسبب مقام السبب، أو قصدت المبالغة في وصفهم بالبكاء، فجعلت أعينهم، كأنها تفيض بأنفسها، أىٰ: تسيل من الدمع من أجل البكاء من قولك: دمعت عينه دمعا»[1].

فإن قلت : أىٰ فرق بين من ومن في قوله: ﴿ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ ؟﴾ ، قلت الأولىٰ لابتداء الغاية ، علىٰ أن فيض الدمع ابتدأ، ونشأ من معرفة الحق، وكان من أجله وبسببه، والثانية لتبيين الموصول الذي هو ما عرفوا، وتحتمل معنىٰ التبعيض علىٰ أنهم عرفوا بعض الحق ، فأبكاهم وبلغ منهم ، فكيف إذا عرفوه كله، وقرأوا القرآن وأحاطوا بالسنة؟[2]

والتعبير بالفعل ﴿ عَرَفُواْ﴾ يدل علىٰ مدىٰ تيقنهم من معرفة الحقيقة التي تبينت لهم بعدما سمعوا القرآن ، فأدركوا أنه منزل من عنده؛ لذلك أسرعوا مؤمنين بالله، وبرسوله متضرعين إلىٰ الله بالدعاء أن يكرمهم بشرف الشهادة مع أمة النبي- صلىٰ الله عليه وسلم - علىٰ الأمم يوم القيامة، وهذا ما جسده قوله – تعالىٰ- :﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا...﴾ ، وجملة يقولون: استئنافٌ مبنيٌّ علىٰ سؤال نشأ من حكاية حالهم عند سماع

(١) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفىٰ: ٥٣٨هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٠٧ هـ ج١/ ٦٧٠.

(٢)إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفىٰ (المتوفىٰ: ٩٨٢هـ)،الناشر: دار العربي – بيروت، ج٣/ ٧٢.

القرآن كأنه قيل : ماذا يقولون؟ فقيل : يقولون : ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا ﴾ بهذا أو بمن أنزل هذا عليه أو بهما[1] ، والاستئناف جاء لإشباع جزء من المعنىٰ له مزيد عناية بالغرض المسوق له الكلام، وهو التأكيد علىٰ سرعة إيمانهم بالله، وتضرعهم، وخشوعهم له أن يتقبله منهم.

والقطع والاستئناف لإشباع المعنىٰ مذهب في كلام العرب "فمن عاداتهم إذا جاء في الكلام مقطع ثري وحي ومثير وله مزيد اختصاص بالمعنىٰ وقفوا عند هذا المقطع، وأشبعوه، وزادوه بيانًا"[2].

ثم حكىٰ- سبحانه- بعد ذلك عنهم ما علمه منهم من إصرارهم علىٰ الدخول في الدين الحق، فقال: ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ ، والاستفهام هنا فيه معنىٰ الاستبعاد، أي إنهم يستبعدون أن لا يؤمنوا بعدما تحققت لهم كل الشواهد، والأدلة علىٰ صدق الرسول، وصدق ما جاء به من الحق، يقول أبو السعود- رحمه الله- : قوله: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ كلام مستأنَفٌ قالوه تحقيقًا لإيمانهم، وتقريرًا له بإنكار سبب انتفائه، ونفيِه بالكلية علىٰ أنَّ قولَه – تعالىٰ-﴿ لَا نُؤْمِنُ ﴾ حال من الضمير في لنا، والعاملُ ما فيه من الاستقرارِ أيْ أيُّ شيءٍ حصل لنا

(١)إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم ،ج٣/ ٧٢

(٢) شرح أحاديث من صحيح البخاري د / محمد محمد أبو موسىٰ – مكتبة وهبة – ط : الأولىٰ ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م .: صـ٢٠٠ .

غيرَ مؤمنينَ علىٰ توجيه الإنكارِ والنَّفي إلىٰ السببِ والمسبَّب جميعًا[1]، كما جاء الاستفهام لإنكار انتفاء الإيمان منهم مع قيام موجباته، وظهور أماراته، ووضوح أدلته وشواهده[2]، والحق الذي عرفوه وأيقنوه هو القرآن الذي أنزل علىٰ محمد -ﷺ- وسمي القرآن حقا؛ لأنه ينطق بالحقيقة التي لا مراء فيها؛ لذلك فهؤلاء النصارىٰ الذي خالط الإيمان قلوبهم أدركوا أنَّ القرآن مصدق لما معهم من الكتاب، ومطابق لما وصف عندهم، ولم يمنعهم عن ذلك عتوّ، وعناد متأصل فيهم.

وجملة ﴿ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ جملة حالية دلت علىٰ قوة إيمانهم، وصدق يقينهم؛ لأنهم مع هذا الإقبال الشديد علىٰ الدين الحق والمسارعة إلىٰ العمل الصالح ، لم يجزموا بحسن عاقبتهم ، بل التمسوا من اللّه – تعالىٰ – الطمع في مغفرته، وفي أن يجعلهم مع القوم الصالحين من أمة محمد – ﷺ- .

وبناء الجملة الحالية علىٰ التعبير بالفعل المضارع ﴿ وَنَطْمَعُ ﴾ فيه دلالة علىٰ حدوث الطمع، وتجدده من حين لآخر، والتعبير بالفعل طمع يدل علىٰ شدة رغبتهم في تحقيق أمنيتهم، ولأن الطمع لا يكون إلا عن رغبة.

(١)إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم،ج٣/ ٧٢، ٧٣.

(٢)التفسير الوسيط،ج٤/ ٢٥٨.

ويأتي قوله تعالىٰ :﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ تفريعًا علىٰ قوله يقولون:﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا ﴾ ومعطوفة عليه من عطف المسبب علىٰ السبب، إذ الإيمان بالله، ورسله شرط أصيل في دخول الجنة، وقد عبر النظم القرآني بالفعل الماضي﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ ﴾ مع أن دخول الجنة التي أثابهم بها أمر مستقبلي، حيث وضع الماضي موضع المضارع؛ وهو مجئ الكلام علىٰ خلاف مقتضىٰ الظاهر؛ إشارة إلىٰ تيقن حدوثه ، وتحقق وقوعه ، وعبر بالإثابة دون الإعطاء؛ لأنها ما تكون عن عمل بخلاف الإعطاء؛ فإنه لا يلزم فيه ذلك[1]وإسناد الفعل إلىٰ الله من باب الحقيقة العقلية؛ لأنَّ وقوع الثواب والعقاب منه –سبحانه وتعالىٰ– ، فيه مزيد من عظيم الشرف، وجميل المحبة لهؤلاء القوم.

**ثم لاحظ كيف جاء الكشف والبيان عن سبب دخولهم الجنة في قوله :﴿ بِمَا قَالُواْ ﴾ معتمدًا علىٰ التعبير بالاسم الموصول وصلته؛ لتحقيق غايات بيانية منها :**

أ ـ القصد إلىٰ معاني فيها ذات أهمية في سياق الكلام[2]، حيث عبر بالموصول ، لإبراز ما في حيز الصلة من معنىٰ جليل ، أراد الله أن يظهره

(١)البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفىٰ: ٧٤٥هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر – بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ،ج٤/ ٢٤٩

(٢) ينظر: خصائص التراكيب :ص١٩٥.

ويوضحه وينبه المخاطبين إليه ؛ وهو الإيمان به .

ب ـ ما في التعبير بالموصول، وصلته من إثارة وتشويق وترقب؛ ذلك لأنه إذا نطق باسم الموصول ، وما يعتريه من غموض وإبهام، تطلعت النفس إلىٰ بيانه ، واشتاقت إلىٰ توضيحه ، فإذا جاء الإيضاح الذىٰ تحمله جملة الصلة صادف نفسًا مهيأة يقظة، فيتمكن المعنىٰ فيها ويقر .

وحذف المفعول في قوله: ﴿ بِمَا قَالُواْ..﴾ ؛ للعلم به ، والدلالة عليه اكتفاءً، حيث سبق ذكره في الكلام، قال عطاء عن ابن عباس- رضي الله عنهما- في قوله: ﴿ بِمَا قَالُواْ﴾: "يريد بما سألوا" يعني قولهم: ﴿ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ ، وقولهم: ﴿ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا ﴾ الآية، وهذا يدل علىٰ مسألتهم الجنة ، فعلىٰ هذا التفسير، القول معناه: المسألة، وتنكير ﴿ جَنَّٰتٍ﴾ يوحي بكثرتها وتنوعها، وأنها جنات ضمن الجنة التي أخبر- سبحانه- عنها ووصفها بقوله: ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ،وقد وقعت جملة ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ صفة لجنات؛ وهي تزيد من التعريف بشأن تلك الجنات حيث الماء يجري من تحتها ، ويلاحظ أن الضمير في ﴿ تَحْتِهَا﴾ جاء مفردًا مع أن كلمة جنات أتت جمع مؤنث سالم ، وكان مقتضىٰ السياق أن يقول: تجري من تحتهن الأنهار ، بعود الضمير جمعًا ؛ ولكنه أتىٰ مفردًا نظرًا إلىٰ الأصل؛ لأنها جنة بداخلها جنان، فإذا سرىٰ الحكم علىٰ الجزء سرىٰ علىٰ الكل.

وإسناد الفعل تجري إلىٰ الفاعل ﴿ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ مجاز عقلي، حيث أسند الفعل إلىٰ مكانه، والذي يجري إنما هو الماء، كما يقال: سار الطريق، وسال الوادي، وهذا المجاز يفيد المبالغة في جريان الماء، ويصور كثرتها، وامتلاء الأنهار بها، وقد قيد الجريان بقوله: ﴿ مِن تَحْتِهَا﴾ ؛ ليدل علىٰ جمالها وحسن منظرها.

وقوله: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ﴾ حال تؤكد خلود أهل الجنة في جنات ربهم ، وصدر الآية إرصاد معنوي لختامها ،إذ يفهم من صدر الآية أن يكون عجزها من مادة الإحسان، ﴿ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ ؛ ليكون آخر ما يطرق السمع هو الثناء علىٰ هؤلاء بكونهم محسنين.

**المقام الثاني**: وجل القلب وزيادة الإيمان.

وقد تجسد هذا المقام في سياق الحديث عن اختلاف أهل بدر في الأنفال، وحقيقة تقسيمها.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ ﴾ سورة الأنفال: آية رقم ٢ – ٤.

**المعنى العام**

الآيات الكريمات وردت في سياق الحديث عن صفات المؤمنين الكاملين الإيمان، فمن صفاتهم إنهم إذا ذكر اسم الله، أو عذابه، أو عقابه رقت قلوبهم، وامتلأت خوفا ورهبة ، وأنهم متىٰ تليت عليهم آيات الله زادتهم تصديقا بربهم، كما أنهم يفوضون أمورهم كلها إليه وحده– سبحانه– لا إلىٰ أحد سواه، فضلا عن أنهم يؤدون الصلاة في مواقيتها مستوفية لأركانها، وشروطها، وسننها، وآدابها وخشوعها وأنهم يبذلون أموالهم للفقراء والمحتاجين بسماحة نفس، وسخاء يد، هؤلاء الذين يفعلون هذه الأفعال هم المؤمنون حقًا ظاهرًا وباطنًا بما أنزل الله عليهم، لهم منازل عالية عند الله، وعفو عن ذنوبهم، ورزق كريم، وهو الجنة.

**المقصد الأعظم لسورة الأنفال.**

آيات هذه السورة خمس وسبعون آية، وهي مدنية إلا من قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ الأنفال: الآية ٣٠ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ الأنفال: الآية ٣٦ ؛ لأنَّ موضوعها ائتمار قريش بالنبي –ﷺ– قبل الهجرة[1].

وشأْن هذه السورة شأْن سائر المدني من القرآن، إذ يكثر فيها قواعد الشرع التفصيلية، كالجهاد، والغنيمة، والأسرىٰ ،وأَحكام القتال.

وقد افتتحت هذه السورة بالسؤال عن الأنفال التي كانت سببا في نزولها، حيث إنها نزلت في شأن اختلاف الصحابة في غنائم غزوة بدر، كما ذكر عبادة بن الصامت حيث قال: « لَمَّا هُزِمَ الْعَدُوُّ يَوْمَ "بَدْرٍ" وَاتَّبَعَتْهُمْ طَائِفَةٌ يَقْتُلُونَهُمْ وَأَحْدَقَتْ طَائِفَةٌ بِرَسُولِ اللهِ –ﷺ–وَاسْتَوْلَتْ طَائِفَةٌ عَلَىٰ الْعَسْكَرِ وَالنَّهْبِ، فَلَمَّا نَفَىٰ اللهُ الْعَدُوَّ، وَرَجَعَ الَّذِينَ طَلَبُوهُمْ، قَالُوا: لَنَا النَّفَلُ؛ نَحْنُ طَلَبْنَا الْعَدُوَّ وَبِنَا نَفَاهُمُ اللهُ وَهَزَمَهُمْ، وَقَالَ الَّذِينَ أَحْدَقُوا بِرَسُولِ اللهِ –ﷺ– وَاللهِ مَا أَنْتُمْ بِأَحَقَّ بِهِ مِنَّا؛ نَحْنُ أَحْدَقْنَا بِرَسُولِ اللهِ –ﷺ–لَا يَنَالُ الْعَدُوُّ مِنْهُ غِرَّةً

(١)التفسير الوسيط للقرآن الكريم، لمجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، الناشر: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، الطبعة: الأولىٰ، (١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣ م) – (١٤١٤ هـ = ١٩٩٣ م)،ج٣/ ١٥٧٧.

فَهُوَ لَنَا، وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَوْلَوْا عَلَىٰ الْعَسْكَرِ وَالنَّهْبِ: وَاللهِ مَا أَنْتُمْ بِأَحَقَّ مِنَّا؛ نَحْنُ أَخَذْنَاهُ وَاسْتَوْلَيْنَا عَلَيْهِ فَهُوَ لَنَا، فَأَنْزَلَ اللهُ- تَعَالَىٰ: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ} فَقَسَمَهُ رَسُولُ اللهِ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- بِالسَّوِيَّةِ »(١).

وكان لمطلع السورة دور كبير في إبراز معانيها، وبيان مقصودها، فالسؤال جاء كاشفا عن التنازع، والجواب جاء صارفًا إلىٰ مقصود السورة مرتبًا علىٰ المقصود أوامر تناسج فيها السياق؛ لذا يقول البقاعي: « ومقصودها تبرؤ العباد من الحول، والقوة، وحثهم علىٰ التسليم لأمر الله، واعتقاد: أن الأمور ليست إلا بيده، وأن الإنسان ليس له فعل يثمر ذلك الاعتصام بأمر الله، المثمر لاجتماع الكلمة، المثمر لنصر الدين، وإذلال المفسدين، المنتح لكل خير، والجامع لذلك كله: أنه كما ثبت بالسور الماضية وجوب اتباع أمر الإله، والاجتماع عليه، لما ثبت من تفرده واقتداره، كان مقصود هذه السورة إيجاب اتباع الداعي إليه بغاية الإذعان، والتسليم، والرضا، والتبرؤ من كل حول وقوة، إلىٰ من أنعم بذلك كله، ولو شاء سلبه، وأدل ما فيها علىٰ هذا المقصود: قصة الأنفال، التي اختلفوا في أمرها، وتنازعوا قسمها، فمنعهم الله منها، وكف عنهم حظوظ الأنفس، وألزمهم الإخبات والتواضع، وأعطاها نبيه -ﷺ-؛ لأنه الذي هزمهم بما رمىٰ من الحصيات التي خرق الله فيها العادة، بأن بثها في أعين جميعهم،

(١)أسباب نزول القرآن، لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفىٰ: ٤٦٨ هـ)،تحقيق: كمال بسيوني زغلول، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١١ هـــ،صـ٢٣٦.

وبما أرسل من جنوده، فكان الأمر له وحده يمنحه من يشاء، ثم لما صار له -ﷺ- رده فيهم، منة منه عليهم، وإحساناً إليهم، واسمها الجهاد كذلك؛ لأن الكفار دائماً أضعاف المسلمين، وما جاهد قوم منا قط إلا أكثر منهم، وتجب مصابرة الضعيف: فلو كان النظر إلىٰ غير قوته سبحانه ما أطيق ذلك»[1].

**علاقة الآية بمقصد السورة**

إذا كانت الآيات تتحدث عن صفات المؤمنين من وجل القلب عند ذكر الله- عزوجل-، ومن زيادة الإيمان عند تلاوة القرآن، ومن صدق اعتمادهم علىٰ ربهم في أمورهم كلها، وإقامتهم الصلاة، ومن إنفاقهم الأموال في سبيل الله، فإنها جارية في المسار الذي اشتملت عليه السورة، بل هي امتداد لما قررته من المعنىٰ الذي قصدته السورة، إذ يلمح من ورائها تسليم المؤمنين الأمر لله، وتفويضه إليه ، فتجد في قوله:- تعالىٰ-﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ الأنفال: آية ٢ نفي ادعاء الحول، والقوة في تحصليهم الأشياء- ومنها الأنفال- علىٰ أي أحد دون الله، والاعتماد عليه وحده.

**علاقة الآيات بقوله – تعالى - في سورة الأعراف:** ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٢٠٤ ﴾سورة الأعراف آية ٢٠٤.

هذه الآيات لها صلة وثيقة، وعلاقة حميمة بآية سورة الأعراف السالفة الذكر، حيث إنه – سبحانه وتعالىٰ- لما بين لهم كيفية الاستماع، وما الذي

(١)مَصَاعِدُ النَّظَرِ للإِشْرَافِ عَلَىٰ مَقَاصِدِ السُّوَرِ،ج٢/ ١٤٦.

يتصف به المؤمن من ضروبه قال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ.....﴾ ، فهؤلاء لم يسمعوا بآذانهم فقط، ولا كانت آذانهم لا يسمعون بها، ولا قلوب لا يفقهون بها، ولو كانوا كذلك لما وجلت وعمهم الفزع والخشية، وزادتهم الآيات إيمانا، فإذن إنما يكون سماع المؤمن هكذا[1].

**علاقة الآيات محل الدراسة بصدر السورة**

هذه الآيات لها نسب ظاهر، وتقارب شديد بالآية السابقة عليها ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١﴾ ، فإنه – سبحانه– لما أمر، ونهىٰ، وهيج وألهب، قال مبينا كون الإيمان مستلزما للطاعة بقوله: ﴿ ..... إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١﴾ اقتضىٰ ذلك أن يعرفوا المزيد من الصفات التي يتحلىٰ بها المؤمنون، حتىٰ يزدادوا إيمانا علىٰ إيمانهم، فقال: ﴿ .....إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ....﴾ ففصلت عن سابقتها؛ لكونها بمنزلة الجواب منها، حيث أثارت جملة الشرط ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ وجزاؤه المحذوف في نفوس المخاطبين تساؤلا بأن يتساءلوا عن هذا الاشتراط بعدما تحقق أنهم مؤمنون، وهل يمترىٰ أحد في أنهم مؤمنون؟، وهل هناك صفات للمؤمنين

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لبرهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، دار النشر : دار الكتب العلمية - بيروت – ١٤١٥،هـ - ١٩٩٥ م ،ج٨/ ٢٢٨.

أخرىٰ سوىٰ تقوىٰ الله، وإصلاح ذات البين، وطاعة الله ورسوله؟، فيجابوا بأن المؤمنين هم الذين صفتهم كيت وكيت ، فيعلموا أن الإيمان المجعول شرطا هو الإيمان الكامل، فتنبعث نفوسهم إلىٰ الاتسام به والابتعاد عن موانع زيادته.(١)

**التحليل البلاغي**

قد وصف ربنا- سبحانه وتعالىٰ- المؤمنين في هذه الآيات بجميل الصفات، وامتدحهم بحسن الخلال، فتخاف قلوبهم رهبة من ذكر ربهم، وتزداد قلوبهم إيمانا عندما تتلىٰ عليهم آياته، وأنهم يتوكلون في جميع شئونهم علىٰ خالقهم، وأنهم يؤدون حق الله عليهم من إقامة الصلاة، وإنفاق الأموال التي رزقهم الله إياها.

والصفة التي هي محل الحديث جاء التعبير عنها في قوله: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ وهو وصف كاشف لحقيقة حال المؤمنين عند استماعهم لكلام رب العالمين، وبيان لأثره علىٰ قلوبهم، إذ إنهم يلقون له السمع، ويحضرون قلوبهم لتدبره فعند ذلك يزيد إيمانهم؛ لأن التدبر من أعمال القلوب، ولأنه لا بد أن يبين لهم معنىٰ كانوا يجهلونه، أو يتذكرون ما كانوا نسوه، أو يحدث في قلوبهم رغبة في الخير، واشتياقا إلىٰ كرامة ربهم،

(١) التحرير والتنوير، المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفىٰ: ١٣٩٣هـ)الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس ، سنة النشر: ١٩٨٤ هـج٩/ ٢٥٥.

أو وجلاً من العقوبات، وازدجارًا عن المعاصي، وكل هذا مما يزداد به الإيمان.

« وحظ المقام المتعلق بأحكام الأنفال من هذه الزيادة هو أن سماع آيات حكم الأنفال يزيد إيمان المؤمنين قوة، بنبذ الشقاق، والتشاجر الطارئ بينهم في أنفس الأموال عندهم، وهو المال المكتسب من سيوفهم، فإنه أحب أموالهم إليهم »[1].

وقد اكتنزت هذه المعاني في جملة شرطية أداتها ﴿ إِذَا ﴾ ؛ للدلالة علىٰ تحقق وقوع الشرط؛ لأن تلاوة الآيات عليهم قد تحققت، وهذا مما يتناسب مع المقام والسياق، فالنبي- صلىٰ الله عليه وسلم- عندما قرأ علىٰ أهل بدر آيات الأنفال هدأت نفوسهم، ووجلت قلوبهم، وازدادوا إيمانا مع إيمانهم.

والآية عامة تشمل مؤمني أهل بدر، وغيرهم علىٰ مر السنين والأيام، فهذا هو ديدنهم مع قرآن ربنا الاستماع الذي يصاحبه التدبر، والفهم، والعمل حتىٰ تكون النتيجة بيان الأثر الطيب الذي يترتب علىٰ ذكر الله ، وتلاوة آياته، وقد طوت الآية ذكر الفهم، والتدبر المترتب علىٰ الاستماع، فلم تقل:( وإذا تليت عليهم آياته تدبروه فزادتهم إيمانا)؛ للتركيز علىٰ بيان الثمرة الناتجة عنهما؛ وهي زيادة الإيمان؛ لأن ذلك هو الأهم ذكره في حقهم.

(١) التحرير والتنوير، ج٩/ ٢٥٩.

يقول الطاهر ابن عاشور- رحمه الله- عن كيفية تأثير تلاوة الآيات في زيادة الإيمان: «إن دقائق الإعجاز التي تحتوي عليها آيات القرآن تزيد كل آية تنزل منها، أو تتكرر علىٰ الأسماع سامعها يقينا بأنها من عند الله، فتزيده استدلالا علىٰ ما في نفسه، وذلك يقوي الإيمان حتىٰ يصل إلىٰ مرتبة تقرب من الضرورة علىٰ نحو ما يحصل في تواتر الخبر من اليقين بصدق المخبرين، ويحصل مع تلك الزيادة زيادة في الإقبال عليها بشراشر القلوب، ثم في العمل بما تتضمنه من أمر أو نهي، حتىٰ يحصل كمال التقوىٰ، فلا جرم كان لكل آية تتلىٰ علىٰ المؤمنين زيادة في عوارض الإيمان من قوة اليقين، وتكثير الأعمال، فهذا وصف راسخ للآيات، ويجوز أن تفسر زيادة الإيمان عند تلاوة الآيات بأنها زيادة إدراك للمعاني المؤمن بها، كما فسرت زيادة الإيمان بالنسبة إلىٰ الأعمال، التي تجب علىٰ المؤمن إذ تلك الإدراكات تعلقات بعضها حسي وبعضها عقلي» (١).

وإسناد الفعل﴿ زَادَتْهُمْ﴾ إلىٰ ضمير الآيات مجاز عقلي علاقته السببية، حيث أسند الفعل إلىٰ سببه؛ والفاعل الحقيقي لزيادة الإيمان هو الله، وإنما أسند الفعل إلىٰ الآيات؛ لأنها سبب زيادة الإيمان؛ للتنبيه علىٰ أثر تلك الآيات علىٰ النفوس المؤمنة، فهي كلام الله -عزوجل- الذي تذعن له القلوب المؤمنة، كما يفيد المجاز المبالغة في تصوير أثر الفاعل المجازي

(١)ا التحرير والتنوير ،ج٩/ ١٨.

الذي أسند إليه الفعل في صدور الأثر المراد، بتحويله من كونه مكانا للفعل أو زمانا أو سببا إلىٰ كونه فاعلا للفعل.

والتعبير بكلمة﴿ ءَايَٰتُهُۥ ﴾ كناية عن موصوف ألا وهو القرآن، وإنما سمي القرآن آيات الله؛ لأن وحيها إلىٰ النبي الأمي – صلىٰ الله عليه وسلم– وعجز قومه، خاصتهم وعامتهم عن الإتيان بمثلها فيه دلالة علىٰ صدق من جاء بها، فلذلك سميت آيات[1].

وقد تعدىٰ الفعل ﴿ زَادَتْهُمْ﴾ إلىٰ ضمير الجمع العائد علىٰ المؤمنين؛ مع أن زيادة الإيمان لها علاقة بالقلب، فالإيمان لا يكون إلا فيه؛ ليبين أن الإيمان سرىٰ في شرايين أجسادهم فخالط لحومهم ودماؤهم.

وقد جاء الفعل ﴿ تُلِيَتْ ﴾معطوفا علىٰ الفعل ﴿ ذُكِرَ﴾ من باب عطف الخاص علىٰ العام، وقد سوغ العطف بينهما وجود التناسب، فتلاوة القرآن نوع من الذكر، بل أفضل أنواعه، وأعلاه؛ ويرجع سر العطف إلىٰ عظيم أهميتها، ومزيد العناية بأمر التلاوة والاعتناء بها.

وجاء التعبير بصيغة الفعل المبنىٰ للمفعول في قوله – تعالىٰ-: ﴿ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ﴾؛ للإيذان بأن هؤلاء المؤمنين الصادقين إذا كانوا يخافون عندما يسمعون من غيرهم آيات الله؛ فإنهم يكونون أشد خوفا وفزعا عند ذكرهم لله، وعند تلاوتهم لآياته

(١)السابق،ج٩/ ٢٥٧.

بألسنتهم وقلوبهم، كما أن حذف الفاعل في الفعلين ﴿ تُلِيَتْ﴾و ﴿ ذُكِرَ﴾ يجعل النفس تذهب كل مذهب في تقدير الفاعل المحذوف، فهو إما للنبي-ﷺ- " وإما لغيره ، وهذا يعني أنَّ التلاوة أتتهم من جهات عدة، فالمقصود من هذه الصيغة مدحهم، والثناء عليهم، وبيان الأثر الطيب الذي يترتب علىٰ ذكر الله وعلىٰ تلاوة آياته.

وقد توسطت جملة ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ جملتين جمعت كل واحدة منها دليلا من أدلة إيمان المؤمنين بالله ، فقوله: ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ بإسناد الفعل وجلت إلىٰ القلوب؛ من قبيل المجاز العقلي؛ لعلاقة المكانية؛ إذ القلب محل للوجل؛ تنبيها إلىٰ أن قلوبهم عامرة بالخوف منه – سبحانه- خاصة عند ذكره.

ولعل التعبير بالفعل وجل في الآية الكريمة جاء متناسبا مع ذكر اسم الله؛ لأن ذكر الله يبعث في النفوس الرهبة والخوف، ويربي في القلوب المهابة، وهذا مما يتناسب مع المقام والسياق الذي أتت فيه الكلمة، حيث إن المقصود من الآية هو تذكير المهاجرين والأنصار الذين اختلفوا في شأن الغنائم بما ينبغي أن يكونوا عليه من الامتثال لأمر الله، كما جاءت زيادة الإيمان متناسبة مع تلاوة الآيات؛ لتدبرهم معناها، وتمسكهم بالعمل بها، فترتب علىٰ ذلك أن زادتهم إيمانا علىٰ إيمانهم.

ويلاحظ أن ذكر الله جاء مجملا؛ لتذهب النفس كل مذهب في تقدير هذا الذكر، فيشمل أي ذكر لله – سبحانه وتعالىٰ- ؛ ليناسب معنىٰ الوجل، فذكر الله يكون: بذكر اسمه، وبذكر عقابه، وعظمته، وبذكر ثوابه ورحمته، وكل ذلك يحصل معه الوجل ثوابه، فينبعث عن ذلك الاستحضار توقع حلول بأسه، وتوقع انقطاع بعض ثوابه، أو رحمته، وهو وجل يبعث المؤمن إلىٰ الاستكثار من الخير، وتوقي ما لا يرضي الله – تعالىٰ- وملاحظة الوقوف عند حدود الله في أمره، ونهيه في قلوب كُمَّل المؤمنين؛ لأنه يحصل معه استحضار جلال الله، وشدة بأسه، وسعة، وملاحظة الوقوف عند حدود الله [1].

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ قصر المولىٰ- تعالىٰ- توكلهم عليه لا علىٰ غيره قصر صفة علىٰ موصوف قصرا حقيقيا تحقيقيا؛ للدلالة علىٰ صدق اعتمادهم علىٰ الله، وتفويض أمورهم إليه.

كما يمكن أن يكون التقديم لرعاية الفاصلة، مع ما فيه من الاهتمام باسم الله، وإما للتعريض بالمشركين؛ لأنهم يتوكلون علىٰ إعانة الأصنام، فيكون الكلام مدحا للمؤمنين، وتعريضا بذم المشركين، ثم فيه تحذير من أن تبقىٰ في نفوس المؤمنين آثار من التعلق بما نهوا عن التعلق به، لتوهمهم أنهم إذا فوتوه فقد أضاعوا خيرا من الدنيا [2].

(١) التحرير والتنوير،ج٩/ ٢٥٦.
(٢)السابق ،ج٩/ ٢٥٩.

هذا وقد أكدت تلك الصفات وصيغت في قالب القصر بـ﴿ إِنَّمَا ﴾ التي من طبيعتها أن تضفي علىٰ المعاني التي تدخل عليها ثوب الشهرة والمعرفة، وكأنه شيء معلوم ومقرر لا يسع أحد أن ينكره لشهرته وذيوعه، وكأن قصر المولىٰ الإيمان الكامل علىٰ أصحاب تلك الصلات المذكورة من وجل القلب عندما يذكر الله، وزيادة الإيمان عند ما تتلىٰ آيات الله عليهم، وتوكلهم علىٰ ربهم، وإقامتهم الصلاة، وإنفاقهم الأموال في سبيل الله أمر معلوم لا يدفعه دافع، ولا يخالف فيه عاقل.

والذي يتضح من المقام والسياق أن صفة الإيمان لا تتحقق إلا في هؤلاء، وأن من لم يجل قلبه إذا ذكر الله، ولم تزده تلاوة آيات الله إيمانا مع إيمانه، ولم يتوكل علىٰ الله، ولم يقم الصلاة، ولم ينفق، لم يكن موصوفًا بالإيمان، المؤمنون لهم صفات أخرىٰ سوىٰ الصفات المذكورة لم يذكرها؛ تركيزًا علىٰ أهمية الصفات المذكورة، وتحريضًا علىٰ الامتثال والاستجابة في تحقيق جواب الشرط المحذوف من تحقيق التقوي وإصلاح ذات البين، وطاعة الله والرسول؛ لذا يقول ابن عاشور– رحمه الله–: «موقع هذه الجملة، وما عطف عليها موقع التعليل لوجوب تقوىٰ الله، وإصلاح ذات بينهم، وطاعتهم الله ورسوله؛ لأنَّ ما تضمنته هذه الجمل التي بعد إنما من شأنه أن يحمل المتصفين به علىٰ الامتثال لما تضمنته جمل الأمر الثلاث السابقة» (١).

وقد وقع قوله تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ ﴾ ، مفصولا عن الكلام السابق؛ لما بينهما من كمال

(١)التحرير والتنوير،ج٩/ ٢٥٤.

الاتصال، حيث جاء اسم الموصولُ ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ﴾ بدلا من اسم الموصول في قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ ، ويرجع السر البلاغي وراء هذ الفصل إلىٰ اهتمامهم بهاتين العبادتين اهتمامًا كبيرًا، وللإشارة إلىٰ تصويرهم متمثلين قائمين بهذه الأعمال التي استحقوا بها وصف الإيمان.

وقد فصل بين قوله- تعالىٰ- ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ ﴾ وما قبلها لما بينهما من كمال الاتصال، حيث نزل منزلة التوكيد المعنوي؛ تأكيدًا علىٰ أن من اتصف بهذه الصفات استحق وصف الإيمان حقا، واسم الإشارة في قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا.. ﴾ حسن موقعه هنا ولطف، إذ يؤذن بأن ما يرد عقبه من جزاء هم أهل له، وجديرون باكتسابه من أجل الصفات التي عددت لهم، وهذا شأن اسم الإشارة عندما يرد بعد تعديد صفات وخصال، فيؤذن بأن المشار إليه جدير باستحقاق ما يأتي عقيبه من أجل تلك الخصال المتقدمة فضلا علىٰ ذلك، فإن اسم الإشارة يدل علىٰ تعظيم المؤمنين، وعلو مكانتهم عند ربهم.

والجملة مبنية علىٰ القصر بتوسط ضمير الفصل، حيث قصر المولىٰ – سبحانه- الإيمان علىٰ من اتصف بتلك الصفات قصرًا حقيقيًا تحقيقيًا لا يتعداه إلىٰ غيرهم؛ تأكيدًا علىٰ أن من وجل قلبه عند ذكر الله، وزيد إيمانًا من تلاوة القرآن عليه، وتوكل علىٰ الله، وأقام الصلاة، وأنفق مما آتاه الله استحق أن يسمىٰ مؤمنًا.

كما أن توسط ضمير الفصل بين اسم الإشارة﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ وكلمة ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ الغرض منه تجلية منزلتهم، وبيان مراتبهم، والتبصير بها، والترغيب، والحث علىٰ الاتصاف بصفاتهم لنيل ما استحقوه من جزاء.

وانتصب حقا علىٰ أنه مفعول مطلق صفة لمصدر محذوف دل عليه المؤمنون، أي إيمانا حقا، أو علىٰ أنه موكد لمضمون جملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ أي ثبوت الإيمان لهم حق لا شبهة فيه، وهو تحقيق لمعنىٰ القصر بما هو عليه من معنىٰ المبالغة [1].

وقد أفاد تقديم الجار والمجرور﴿لهم﴾ في قوله –تعالىٰ–: ﴿ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ العناية والاهتمام؛ لبيان عظم الجزاء الذي أعده الله لهم، ولتتمكن المعاني الواردة بعده في النفس فضل تمكن، والدرجات مفردها درجة، وجمعها يوحي بكثرتها، وغزارتها، وتنوعها ، وتنكيرها يدل علىٰ التعظيم، والتفخيم من شأنها ، كما دل التنوين في تلك الكلمة علىٰ كونها درجات متفاوتة والتعبير بقوله: ﴿ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ كناية عن الجنة؛ لأنَّ الجنة عبارة عن درجات، وهي بيان لمنازلهم وهي توحي بالعلو والارتفاع؛ وهذا يتناسب مع علو مكانتهم، وقد أفاد الظرف ﴿ عند ربهم﴾ قرب مكانتهم من ربهم ، وتنكير كلمة ﴿مغفرة﴾ يدل علىٰ التفخيم والتعظيم، كما دل تنكير كلمة ﴿ رزق﴾ علىٰ التفخيم والتعظيم، ويدل علىٰ ذلك الوصف الواقع بعده كريم.

(١)التحرير والتنوير،ج٩/ ٢٥٤.

**المقام الثالث: السجود تعظيما لله، والبكاء من خشيته، والخشوع له .**

**ورد هذا المقام في موضعين من القرآن الكريم ، الموضع الأول: في سياق الحديث عن المؤمنين من اليهود والنصارى من الأمم السابقة، وذلك في خواتيم سورة الإسراء.**

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ سورة الإسراء، من آية رقم١٠٥ ،١٠٩.

**المعنى العام**

الآيات الكريمات تصف حالة أخرىٰ، وهيئة من الهيئات التي يكون عليها أهل الإيمان عندما يقرأ علىٰ مسامعهم كلام الله، حيث يقعون علىٰ وجوههم ساجدين لله، وهم يبكون، ويزيدهم القرآن تواضعا لله، وخضوعا، كما يزيدهم عليها يقينا باللهِ تعالىٰ.

«وهذه الآية تصف فئة صالحة من أتباع المسيحية، واليهودية عاشت إلىٰ أن أدركت الإسلام، فسارعت إلىٰ الدخول في دين الله؛ اعتمادا علىٰ ما تناقلته من البشارة برسول الله، وحسن إسلامها، فكانت تخر علىٰ وجهها خاشعة باكية كلما تلي عليها القرآن، وتسبح لله الذي صدقها وعده، وأنعم عليها بنعمة الإيمان»(١).

(١)التيسير في أحاديث التفسير، المؤلف: محمد المكي الناصري (المتوفىٰ: ١٤١٤هـ)،الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م،ج٣/ ٤٢٢.

**المقصد الأعظم لسورة الإسراء.**

سورة الإسراء من السور المكية تسمىٰ – أيضا- سورة " سبحان " وسورة بني إسرائيل، عدد آياتها عند الجمهور إحدىٰ عشرة آية ومائة[1]، وهذه السورة« عالجت العقيدة الإسلامية في شتىٰ مظاهرها، فتراها تكلمت عن الرسول ورسالته، والقرآن وهدايته وموقف القوم منه، ثم عن الإنسان وسلوكه، وأسس المجتمع الإسلامي السليم، وامتازت بتنزيه الله عما يقوله المشركون، وفي ثنايا ذلك كله قصص عن بنىٰ إسرائيل، وذكرت طرفًا من قصة آدم، وابتدأت الكلام عن الإسراء»[2].

ومطلع السورة الكريمة بدأ بالحديث عن إسراء النبي- ﷺ- من المسجد الحرام إلىٰ المسجد الأقصىٰ، ودل علىٰ التعجيب من هذا الحدث العظيم، وقد جاء المطلع مفتتحًا بقوله: سبحان ، وبداية السورة بهذا المصدر فيه دلالة علىٰ مقصود السورة الذي هو تنزيه الله – سبحانه- عما لا يليق به ؛ لذا يقول الإمام البقاعي: «ومقصودها: الإقبال علىٰ الله وحده، وخلع كل ما سواه، لأنه وحده المالك لتفاصيل الأمور، وتفضيل بعض الخلق علىٰ بعض، ذلك هو العمل بالتقوىٰ التي أدناها خلع الأنداد، واعتقاد التوحيد علىٰ ما دعا إليه افتتاح النحل، وأعلاها: الإحسان، الذي اختتمت به، وهو الفناء عما سوىٰ الله، وذلك شرح ما أشار إليه آخر التي قبلها، من قوله- تعالىٰ-آ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨ ﴾

(١) التفسير الوسيط،ج٨/ ٢٧٣.

(٢) التفسير الواضح،ج٢/ ٣٤٩.

سورة النحل آية: ١٢٨ ،وكل ما أسمائها واضح الدلالة علىٰ هذا: أما سبحان - الذي هو علم للتنزيه - فمن أظهر ما يكون فيه، لأن من كان علىٰ غاية النزاهة عن كل نقص، كان جديراً بأن: (لا تعبدوا إلا إياه) وأن يعرض كل مخلوق عن كل ما سواه، لكونه متصفًا بما ذكر. وأما الإسراء: فمن عرف أموره كلها في السّرىٰ بالنبي -ﷺ- من المسجد الحرام، إلىٰ المسجد الأقصىٰ، ثم العروج من المسجد الأقصىٰ، إلىٰ السماوات العلي، إلىٰ سدرة المنهىٰ ، ثم إلىٰ ما شاء العليُّ الأعلىٰ، ثم التردد بين موسىٰ -عليه السلام-، وبين من أسرىٰ به من السماء السادسة إلىٰ ما وصل إليه في المرة الأولىٰ من الحد الأسمىٰ، والحضرة الشماء، والمحل الأقدس الأبهىٰ، الذي وصل إليه دون غيره من الخلائق، وهو فوق السماء السابعة، بما لا يعلمه إلا الله - تعالىٰ-، مرة بعد أخرىٰ ثم الرجوع إلىٰ المسجد الأقصىٰ، ثم إلىٰ الكعبة العظمىٰ، قبل فجر تلك الليلة، علم أن الفاعل لذلك متصف بكل ما ذكر، فأقبل بكليته، وانقطع دائمًا إليه، وكذا تسميتها بالأقصىٰ، فإنه مشير إلىٰ قصة الإسراء، وأما بنو إسرائيل، فمن أحاط - أيضًا - بتفاصيل أمرهم في مسيرهم إلىٰ الأرض المقدسة، الذي هو كالإسراء، وإيتائهم الكتاب، وما ذكر مع ذلك من شأنهم في هذه السورة، الذي هو معروف بالفرق بين الإسراءين والفرق بين الإيتاءين، عرف ذلك[1].

(١)مَصَاعِدُ النَّظَرِ للإشْرَافِ عَلَىٰ مَقَاصِدِ السُّوَرِ،ج٢/ ٢٣٠.

يقول الأستاذ الدكتور إبراهيم الهدهد- رحمه الله- معلقًا علىٰ كلام الإمام البقاعي : «وبيانه – رحمه الله- مدل علىٰ جذر السورة الذي هو مقصودها، وكان تعدد التسمية عنده بيانا وكشفًا عن تشاجر فروع هذا الجذر في السورة، وتواصل أغصانها، وتمايل أفنانها؛ لأنَّ السورة عنده كالشجرة النضيرة في هذا التواصل، والتشابك، ولها جذر ينتظم كل فروعها، وأغصانها، وأوراقها يلقي به دائما في مطلع السورة الكريمة»[1].

**علاقة الآيات بمقصود السورة .**

الآيات هنا تمثل امتدادا طبيعيا لمقصود السورة كلها، فهي تعرض مشهدًا لمؤمني أهل الكتاب عند استماعهم القرآن الكريم، وتصور الأثر النفسي الذي انعكس علىٰ أجسادهم، وعلىٰ ألسنتهم، حيث قالوا :﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ سورة الإسراء آية: ١٠٨ وهذا الختام يتناغم تمام التناغم مع مطلع السورة في الدلالة علىٰ مقصود السورة، فهما يعملان في جهة واحدة علىٰ تنزيه الله- سبحانه وتعالىٰ- عما نسبه إليه المشركون من اتخاذ الولد – تعالىٰ- الله عما يقولون علوًّا كبيرًا، وقد جاءت ألفاظ الختام متفقة مع ألفاظ المطلع، فالسورة بدأت بالتسبيح، وانتهت بالتسبيح، وقال في أولها: ﴿ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ﴾ سورة الإسراء آية: ٥، وختمت بقوله: ﴿ سُبْحَانَ رَبِّنَآ إِن

(١)علاقة المطالع بالمقاصد في القرآن الكريم، دراسة بلاغية- نظرية- تطبيقية، أ.د/ إبراهيم صلاح الهدهد، مكتبة الإيمان بالقاهرة، الطبعة الأولىٰ ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م،ص٣٣٢، ٣٣٣.

﴿ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ سورة الإسراء، آية:١٠٨ ، ولذا قال الألوسي: وما ألطف المناسبة بين ابتداء هذه السورة، وهذا الختام، وليس ذلك بدعا في كلام اللطيف العلام»(١).

**علاقة الآيات بما قبلها**

إنه – سبحانه– لما بين في الآيات السابقة أن فرعون – عليه من الله ما يستحق– قابل الآيات التي أنزلت علىٰ موسىٰ –عليه السلام– بالجحود، والنكران والرمي بالسحر، وعدم الإيمان بها، فإنه ذكر ذلك تسلية لرسوله– صلىٰ الله عليه وسلم– ؛لأن قومه سيقابلونه بالمنهج الذي سلكه فرعون مع موسىٰ من عدم الإيمان بما أنزل عليه، فأمره أن يقول لهم : إن علماء أهل الكتاب الذين آتاهم الله العلم قبل نزول هذا القرآن، وميزوا بين الحق والباطل، كانوا إذا يتلىٰ عليهم هذا القرآن، يسقطون علىٰ وجوههم ساجدين لله– تعالىٰ– شكرًا له علىٰ إنجاز وعده، بإرسالك– أيها الرسول الكريم– وبإنزال القرآن عليك، كما وعد بذلك– سبحانه– في كتبه السابقة.

**التحليل البلاغي**

قوله: ﴿ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ وصف للحالة التي كان عليها علماء أهل الكتاب عندما يستمعون كلام الله يسقطون بأجسادهم علىٰ وجوههم يبكون تأثرًا بمواعظ القرآن، ويزيدهم

(١)روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفىٰ: ١٢٧٠ هـ)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٥ هـ،ج٨/ ١٨٥.

سماع القرآن، ومواعظه خضوعا لأمر الله، وعظيم قدرته، ولما كان الغرض من هذه الجمل هو وصف هؤلاء المؤمنين من أهل الكتاب بهذه الصفة، وإثباتها لهم، والإشادة بهم، والثناء عليهم بذلك جاء نظمها متوافقا مع هذا الغرض أتم الموافقة، ومبرزرًا له وموضحًا له يتجلىٰ ذلك من خلال بدء الحديث عنهم بالتوكيد المنبعث من لفظ (إنَّ) في قوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ﴾ الذي دل علىٰ عناية الله علىٰ أن يؤنس به نفس نبيه– صلىٰ الله عليه وسلم– وإن كانت لا تنكره، وإنما هي في حاجة إلىٰ ما يهيئها، وموقع هذه الجملة من التي قبلها موقع التعليل للقول علىٰ سبيل التسلية له – صلىٰ الله عليه وسلم –[1] أو لمعنىٰ التسوية بين الإيمان به، أو عدم الإيمان، لذلك فصلت عنها لما بينهما من شبه كمال الاتصال؛ تأكيدًا علىٰ أن أهل العلم من أهل الكتاب يخرون ساجدين باكين خاشعين خاضعين لله – عز وجل– من خشية الله، وإيمانا وتصديقا بكتابه ورسوله.

وجملة﴿أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ ، كناية عن موصوف هم مؤمنو أهل الكتاب الذين ءامنوا برسول الله– صلىٰ الله عليه وسلم– وصدقوه، واستمعوا إلىٰ ما أنزل إليه حتىٰ فعل القرآن فيهم ما فعل.

(١)إعراب القرآن وبيانه، لمحيي الدين بن أحمد مصطفىٰ درويش ،الناشر: دار الإرشاد للشئون الجامعية – حمص – سورية ، ( دار ابن كثير – دمشق – بيروت)، الطبعة : الرابعة ، ١٤١٥ هـ،ج٥/ ٥١٦.

والضمير في كلمة ﴿ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾ كناية عن موصوف هو القرآن؛ تفخيمًا وتعظيمًا لشأنه.

وجملة ﴿ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ ﴾ جملة وقعت خبرا لـ﴿إِنَّ ﴾ ، وهي مبنية علىٰ أسلوب شرط، حيث ارتبط جواب الشرط بفعله، فقد ارتبط سقوطهم سجدًا خاضعين لله بتلاوة القرآن عليهم، فكلما تليت عليهم آيات الله- عزوجل- سقطوا ساجدين لله وخاضعين له.

والتعبير بـ﴿إِذَا﴾ الشرطية فيه دلالة علىٰ تحقق فعل الشرط، وأن تلاوة الآيات عليهم قد تحققت، والتعبير بالفعل المضارع ﴿يُتْلَىٰ ﴾ وبناؤه للمجهول؛ للدلالة علىٰ تجدد التلاوة، واستمرارها ووقوعها من جهات متعددة، إذ المضارع يدل علىٰ التجدد والاستمرار، وبناؤه للمفعول، وحذف الفاعل يجعل النفس تذهب كل مذهب في تقدير الفاعل المحذوف، فهو إما للنبي- صلىٰ الله عليه وسلم- وإما للصحابة - رضي الله عنهم- وإما غيرهم، وهذا يعني أن التلاوة أتتهم من جهات متعددة، كما يمكن أن يكون الغرض من الحذف هو إثبات الفعل وتحقيقه.

ولما كان الغرض من النظم القرآني هو مدح هؤلاء العلماء من أهل الكتاب جاء فعل التلاوة مقيدًا بحرف الجار عليهم؛ للدلالة علىٰ أن القرآن كان يقرأ عليهم، وللإشادة بهم في الاستماع إليه.

وكلمة ﴿يَخِرُّونَ ﴾ جواب الشرط توحي بأنهم يسارعون إلىٰ السجود ، وكأنها عملية انفعالية غير إرادية ليس لهم فيها تصرُّف ، فبمجرد

سماع القرآن يرتمون علىٰ الأرض ساجدين؛ لأنهم تفاعلوا معه ، واختمر الإيمان في نفوسهم .

ودلالة الفعل المضارع ﴿يَخِرُّونَ﴾ تستحضر من خلالها- أنت أيها القارئ- صورة سقوطهم سجَّدًا لربهم خاشعين له عندما يتلىٰ عليهم القرآن ممثلة أمام عينيك؛ وذلك؛ لأنَّ الفعل المضارع بطبيعته يجعل المعنىٰ حاضرًا بين يديك، وكأنَّ الأفعال المضارعة في الكلام الحر مرايا تعكس لك الصور، والأحداث، فلا تسمعها بأذنك، وإنما تراها بعينك[1]، فضلاً علىٰ ذلك، فإنه يفيد التجدد، والحدوث، والاستمرار، فذلك أمر مستقر، وثابت منهم، ولا شك في أنَّ وضع المعنىٰ في صورة متجددة، ومرئية أدعي إلي التمكين في النفوس.

وإنما خص الأذقان بالذكر؛« لأنَّ الذقن أقرب شيء من وجه الإنسان، ولا يجوز السجود علىٰ الذقن؛ لأنَّ الذقن هاهنا عبارة عن الوجه، وقد يعبر بالشيء عما جاوره وببعضه عن جميعه»[2].

(١) قراءة في الأدب القديم، أ. د/ محمد محمد أبو موسىٰ، مكتبة وهبة، الطبعة الثالثة، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م، ص٣٢.

(٢)الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفىٰ : ٦٧١هـ)،تحقيق : أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر : دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة : الثانية ، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م،ج١٠/ ٣٤١.

وقد تكلم الزمخشري- رحمه الله- عن معنىٰ الخرور للذقن، فقال: « وهل اللام علىٰ حقيقتها، أم خرجت عن معناها إلىٰ معنىٰ الاستعلاء؟ قال: فإن قلت: ما معنىٰ الخرور للذقن؟ قلت: السقوط علىٰ الوجه، وإنما ذكر الذقن وهو مجتمع اللحيين؛ لأنّ الساجد أول ما يلقىٰ به الأرض من وجهه الذقن، فإن قلت: حرف الاستعلاء ظاهر المعنىٰ، إذا قلت خرّ علىٰ وجهه وعلىٰ ذقنه، فما معنىٰ اللام في خرّ لذقنه ولوجهه؟ قال: فخرّ صريعًا لليدين، وللفم قلت: معناه جعل ذقنه ووجهه للخرور واختصه به، لأن اللام للاختصاص»[1]

ويجيب أستاذنا الدكتور محمد الأمين الخضري- رحمه الله- علىٰ سر هذا الاختصاص، والفرق بينه وبين الاستعلاء فيقول: « أرىٰ- والله أعلم- أن الساقط علىٰ وجهه، والخار علىٰ ذقنه اضطرارًا لا يفرق بين عضو يقدمه، أو يؤخره، ولا اختيار له في كيفية استقبال الأرض، فهو ينكب عليها بلا وعي، بخلاف الساجد لله شكرًا وتعبُّدًا، فإن له وفور رغبة، وإقبال نفس، وهو سجود يشرف الأعضاء، ويعتقها من نار جهنم؛ لأنه يجلب لها نفعًا وخيرًا، أما الساقط علىٰ وجهه من سقوط، أو غثيان، فإنَّما يلحق الضرر بالعضو الساقط عليه ويؤذيه»[2].

(١)الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ،ج٢/ ٦٩٩، ٧٠٠.

(٢)من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، أ. د/ محمد الأمين الخضري، الطبعة الثانية مكتبة وهبة،١٤٣٧هـ،٢٠١٥م،ص٢٦٩، ٢٧٠.

وقوله: ﴿ سُجَّدًا ﴾ حال من الضمير في الفعل ﴿ يَخِرُّونَ ﴾ دلت علىٰ الهيئة التي تصاحبهم عند يتلىٰ عليهم القرآن، حيث يسقطون علىٰ وجوههم؛ تعظيمًا لأمر الله أو شكرًا لإنجاز وعده في تلك الكتب ببعثة محمد- ﷺ- علىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرسل، وإنزال القرآن عليه[1].

وقد عطف قوله- تعالىٰ-:﴿ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ علىٰ جملة ﴿يَخِرُّونَ﴾ ؛لاتفاقهما في الخبرية لفظًا ومعنىٰ؛ للتأكيد علىٰ مدىٰ تنزيههم لله- سبحانه- عن كل نقص مقرين بصدق ما وعدهم به، وهذا القول بيان لما يقولونه في سجودهم.

ووعد ربنا المقصود به إنزال القرآن، وبعث محمد، وهذا يدل علىٰ أن هؤلاء كانوا من أهل الكتاب؛ لأنَّ الوعد ببعثة محمد سبق في كتابهم، فهم كانوا ينتظرون إنجاز ذلك الوعد.[2]

واللام في قوله: ﴿لَمَفْعُولًا ﴾ تسمىٰ لام التأكيد؛ دلت علىٰ تحقيق ذلك الوعد، وأنه كائن لامحالة.

---

(١): أنوار التنزيل وأسرار التأويل، لناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفىٰ: ٦٨٥هـ)،تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولىٰ – ١٤١٨ هـ، ج٣/ ٢٦٩.

(٢) مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفىٰ: ٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـج٢١/ ٤١٨.

وقوله: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ جاء معطوفا علىٰ جملة﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ ؛ للتوسط بين الكمالين؛ للتأكيد علىٰ أنهم يبكون من تأثير سماع مواعظ القرآن، وبين الجملتين اتفاق في الخرور، فالأول خرور للسجود، والثاني خرور للبكاء، لذا كرّره لاختلاف الحال والسبب، فإنّ الأول للشك عند إنجاز الوعد، والثاني لما أثر فيهم من مواعظ القرآن حال كونهم باكين من خشية الله[1].

فالخرور المحكي بالجملة الثانية هو الخرور الأول، وإنما خرُّوا خرورًا واحدًا ساجدين باكين، فذكر مرتين اهتمامًا بما صحبه من علامات الخشوع.

وذكر الفعل ﴿يَبْكُونَ﴾ بصيغة المضارع لاستحضار الحالة، والدلالة علىٰ التجدد والحدوث، فبكاؤهم عند استماعهم القرآن يتجدد بتجدد التلاوة ؛ فضلا علىٰ ذلك، فإنه أثرىٰ الصورة ، ومثلها أمام أعيننا استحضارًا

(١)حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، للشيخ العلامة محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي، إشراف ومراجعة: الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي، الناشر: دار طوق النجاة، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م،ج١٦، ٢٧٥، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفىٰ: ٤٦٨ هـ)،تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار النشر: دار القلم ٱ الدار الشامية – دمشق، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٥ هـ،ج١/ ٦٥١.

لتلك الهيئة التي يملأها الخشوع." وفرق بين المعنىٰ الذىٰ تأخذه من لفظ تسمعه الآذان ، والمعنىٰ الذىٰ تأخذه من صورة تراها العيون"[1].

وقوله: ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ ، يعكس الأثر الذي يخلفه القرآن في نفوس هؤلاء حيث يمدهم خضوعا وتواضعا لربهم.

وإسناد فعل الزيادة إلىٰ ضمير القرآن مجاز عقلي علاقته السببية؛ لكون آياته سببا في خشوعهم، وتكمن بلاغة هذا المجاز في أن فيه دلالة علىٰ عظم القرآن، وقوة أثره علىٰ من يتلقاه بالقبول، ويصغىٰ إليه إصغاء تدبر وتأمل لما جاء في تضاعيفه، فيزيده خشوعا وتواضعا.

**الموضع الثاني: في سياق الحديث عن امتنان الله وإنعامه على أنبيائه.**

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَٰنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ ﴾ سورة مريم:آية ٥٨.

**المعنى العام.**

الآية الكريمة جاءت في نهاية الحديث عن عشرة من الأنبياء، أولهم زكريا وآخرهم إدريس عليهم السلام منَّ الله عليهم بشرف النبوة ، وحمل الرسالة، أصحاب مناقب عظيمة، وصفات كريمة أولئك الذين أنعم الله- تعالىٰ- عليهم، من صفاتهم أنهم إذا تتلىٰ عليهم آيات الرحمن، المتضمنة

(١): شرح أحاديث من صحيح البخارىٰ . أد/ محمد محمد أبوموسىٰ – مكتبة وهبة – ط : الأولىٰ ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م .ص١٧٠.

لتمجيده، وتعظيمه، وحججه خروا علىٰ جباههم ساجدين وباكين،وسقطوا خاضعين خاشعين خوفًا ورجاء، وتعظيما وتمجيدا لله رب العالمين.

**المقصد الأعظم لسورة مريم**

سورة مريم من السور المكية، عدد آياتها ثمان وتسعون آية، يدور سياقها حول محور التوحيد، ونفي الولد، والشريك لله، هذا هو الموضوع الرئيس الذي تعالجه السورة كالشأن في السور المكية.

«والقصص هو مادة هذه السورة، فهي تبدأ بقصة زكريا ويحيىٰ،فقصة مريم، ومولد عيسىٰ، فطرف من قصة إبراهيم مع أبيه، ثم تعقبها إشارات إلىٰ النبيين: إسحاق ويعقوب، وموسىٰ، وهرون، وإسماعيل، وإدريس، وآدم، ونوح، ويستغرق هذا القصص حوالي ثلثي السورة، ويستهدف إثبات الوحدانية، والبعث، ونفي الولد والشريك، وبيان منهج المهتدين، ومنهج الضالين من أتباع النبيين، ومن ثم بعض مشاهد القيامة، وبعض الجدل مع المنكرين للبعث »[1]. .

وقد دل مطلع السورة الكريمة علىٰ مقصودها إذ افتتحت بإفضال الله علىٰ أنبيائه، وشمول رحمته بهم، «فإضافة الذكر إلىٰ الرحمة يدل علىٰ أن السورة بنيت علىٰ ذكر رحمة الله عباده، وأن إضافة الذكر إلىٰ الرحمة في المطلع أغنت عن الإضافة في السورة، فلم يقل: واذكر في الكتاب رحمة ربك عبده زكريا، واذكر في الكتاب رحمة ربك مريم، واذكر في الكتاب رحمة عبده إبراهيم، واذكر في الكتاب رحمة ربك عبده موسىٰ واذكر في

(١) في ظلال القرآن، ج٤/ ٢٢٩٩.

الكتاب رحمة ربك عبده إسماعيل واذكر في الكتاب رحمة ربك عبده إدريس»[1]

ومقصودها كما ذكر البقاعي : « بيان اتصافه – سبحانه- بشمول الرحمة بإضافة جميع النعم علىٰ جميع خلقه، المستلزم للدلالة علىٰ اتصافه بجميع صفات الكمال المستلزم لشمول القدرة علىٰ إبداع المستغرب، المستلزم لتمام العلم، الموجب للقدرة علىٰ البعث، والتنزه عن الولد؛لأنه لا يكون إلا لمحتاج، ولا يكون إلا مثل الوالد، ولا سمِيَّ له – سبحانه-، فضلاً عن مثيل»[2].

«وللسورة كلها جو خاص يظللها، ويشيع فيها، ويتمشىٰ في موضوعاتها،وسياقها معرض للانفعالات، والمشاعر القوية، والظل الغالب في الجو هو ظل الرحمة، والرضىٰ والاتصال وإنك لتحس لمسات الرحمة الندية ودبيبها اللطيف في الكلمات، والعبارات، والظلال، كما تحس انتفاضات الكون، وارتجافاته لوقع كلمة الشرك التي لا تطيقها فطرته، كذلك تحس أن للسورة إيقاعا موسيقيًّا خاصًّا».[3]

**علاقة الآية بمقصود السورة**

الآية الكريمة تعمل في نفس المعنىٰ الذي اشتملت عليه سورة مريم من إظهار نعمة الله علىٰ عباده، وقد جاءت تعقيبا علىٰ قصص الأنبياء

(١) علاقة المطالع بالمقاصد في القرآن الكريم، ص١٩٦، ١٩٧.
(٢)نظم الدرر في تناسب الآيات والسور،ج١٢/ ١٥٦.
(٣)في ظلال القرآن،ج٤/ ٢٣٠٠.

الذين شملتهم الرحمة، ولما كان المقصود وصفه -سبحانه- بشمول الرحمة، وتوهم أن المشمول بالرحمة هم المذكورون من الأنبياء في السورة دون غيرهم من الأنبياء، ومن الناس جاء بهذه التنزيل؛ ليقرر أن الرحمة تستغرق الأنبياء، وكل العباد المقبلين علىٰ الله وحده.

**مناسبة الآية لما قبلها**

بعد أن قص الله – تعالىٰ- في الآيات السابقة علىٰ تلك الآية قصص زكريا، ويحيىٰ، وعيسىٰ، ومريم، وإبراهيم، وموسىٰ، وهارون، وإسماعيل، وإدريس،- عليهم السلام- أخبر الله – سبحانه- في هذه الآية أنَّ أولئك المذكورين في هذه السورة، وجميع الأنبياء: أنعم الله عليهم بنعمة النبوة، والقرب منه، وعظم المنزلة لديه، واختارهم، واجتباهم من بين عباده، وهداهم، وأرشدهم؛ ليكونوا المثل الأعلىٰ للبشرية، والأسوة الحسنة للناس جميعا، في عبادة الله، وطاعته، والتأسي بطريقتهم، ومنهجهم، وأخلاقهم، فأنت ترىٰ أن الله- تعالىٰ- قد جمع لهؤلاء المنعم عليهم جملة من المزايا منها: أعمالهم الصالحة، ومناقبهم الحميدة التي سبق الحديث عنها، ومنها: كونهم من نسل هؤلاء المصطفين الأخيار، ومنها أنهم ممن هداهم الله- تعالىٰ- واصطفاهم لحمل رسالته.

قال الإمام البقاعي- رحمه الله-:« ولما انقضىٰ كشف هذه الأخبار ، العلية المقدار ، الجليلة الأسرار ، شرع سبحانه ينسب أهلها بأشرف نسبهم ، ويذكر أمتن سببهم هزاً لمن وافقهم في النسب إلىٰ الموافقة في السبب»[1]

(١):نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ،ج٤/ ٥٤٣.

**التحليل البلاغي**

يلاحظ أن الآية التي بين أيدينا جاءت مفصولة عن الكلام السابق لما بينهما من ارتباط وثيق، وتلاحم قوي، حيث نزلت منه منزلة التوكيد المعنوي، فمن يقرأ الآيات السابقة يجد أنها أمرت النبي- صلىٰ الله عليه وسلم- أن يذكر قصص هؤلاء لقومه ؛ لأنَّ في ذكرهم إظهار الثناء علىٰ الله ،وعليهم، وبيان فضله، وإحسانه عليهم، وهذا ما أكدته الجملة التي بين أيدينا.

واسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يعود إلىٰ الأنبياء المذكورين في هذه السورة، وهم عشرة، أولهم زكريا، وآخرهم إدريس – عليه السلام-، وفيه دلالة علىٰ التعظيم، وعلو المكانة، ويدل علىٰ أنهم جديرون بما اختصهم الله من النبوة والرسالة، حيث صاروا أهلاً لها، وقد وصفتهم الآية بما هم أهله من صفات كريمة؛ ليتأسىٰ الناس بهم في ذلك.

كما أنَّه ميزهم به أكمل تمييز؛ ليتقرر الحكم عليهم بالإنعام من الله، وليس هناك أشرف من الرسالة مرتبة ودرجة.

وقد زاد اسم الموصول﴿ٱلَّذِينَ﴾ من التعريف بهم والتشهير، والغرض المسوق له الكلام هو تقرير إنعام الله عليهم؛ حيث اصطفاهم لحمل رسالته، وتبليغ شرعه.

وفي مجيء جملة الصلة فعلا ماضيا﴿أَنۡعَمَ﴾ ؛ دلالة علىٰ تحقيق وقوع هذا الإنعام، وإسناده إلىٰ الله فيه تشريف، وتعظيم لهم؛ لأنه – سبحانه-

المنعم علىٰ عباده، والمتفضل عليهم بإسناد تلك العطايا إلىٰ الله – تعالىٰ – تشريفًا لها، فكان ذلك التشريف هو الجزاء عليها ،إذ لا أزيد من المجازي عليه إلا تشريفه[1].

وأطلق الإنعام ليشمل كل إنعام؛ فيشمل نعمة الإسلام، ونعمة النبوة، وغير ذلك من النعم الوفيرة التي منحها الله لهم.

والتعبير بحرف الجار ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ يوحي بجعل النعم سياجا يحيط برؤوسهم، وأنهم من يعيشون تحت ظلالها تغشاهم وتجللهم.

ومن في قوله ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ للبيان، حيث أفصحت عن المنعم عليه، والذي يظهر أن جميع الأنبياء منعم عليهم، لذلك جاءت كلمة﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ جمعا؛ لتدل علىٰ أن الأنبياء إخوة في تلك النعم.

وقوله ﴿ذُرِّيَّةَ ءَادَمَ﴾ بدل من النبيين، يبين أن أشرف الخلق، وصفوته أصلهم آدم – عليه السلام–، وهم بعض أبنائه، لكن الله فضلهم علىٰ سائر خلقه بالرسالة، والنبوة.

وقوله:﴿ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ ﴾ معطوف علىٰ قوله: ﴿ ذُرِّيَّةَ ءَادَمَ﴾ ؛ وهو كناية عن إبراهيم– عليه السلام–؛ لأنه من ذرية نوح، فهو من نسل سام بن نوح.

(١):التحرير والتنوير،ج١٦، ١٣٣.

وقوله ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ كناية عن إسماعيل، وإسحاق، ويعقوب؛ لأنهم من نسله وصلبه ﴿وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يريد الذرية التي هي من نسله، ونسبه، وهم موسىٰ، وهرون، وزكريا، ويحيىٰ، وعيسىٰ.

يقول القرطبي- رحمه الله-: « فكان لإدريس ونوح شرف القرب من آدم، ولإبراهيم شرف القرب من نوح، ولإسمعيل، وإسحاق، ويعقوب شرف القرب من إبراهيم»(١).

وقوله: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ﴾ كناية عن من شرح الله صدره للإيمان من النبيين وغيرهم ،وفي العطف دلالة علىٰ تشريف هؤلاء المهديين، وتعظيم قدرهم عند الله – عزوجل-.

ويأتي قوله: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ في نهاية الحديث عنهم؛ ليكون آخر ما يقرع الأسماع ، ويرتسم في النفس، فتعيه العقول، ويستقر في القلوب، وليستبين للسامع حال هؤلاء عند استماعهم إلىٰ كلام ربهم، لذا فهذه الجملة إما أن تكون مستأنفة مسوقة لعظم خشيتهم من الله، وبيان لرقة مشاعرهم، وشدة تأثرهم عند سماع آيات الله- تعالىٰ- وإما أن تكون خبرية لاسم الإشارة﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ دالة علىٰ شكرهم نعم الله عليهم، وتقريبه إياهم بالخضوع له بالسجود عند تلاوة آياته وبالبكاء.

(١)الجامع لأحكام القرآن،ج١١/ ١٢٠.

هذا وقد بنيت الجملة علىٰ أسلوب الشرط أداته﴿إِذَا﴾ ، وفي هذا دلالة علىٰ ارتباط جواب الشرط بفعله، فكلما سمعوا شيئًا من القرآن، أو قرئت عليهم آيات الرحمن المتضمنة لتوحيده، وحججه خروا ساجدين لله خضوعا، واستكانة، وحمدًا وشكرًا علىٰ ما فيه من النعم العظيمة، وبكوا خشية من كلام ربهم.

ومجيء فعل التلاوة فعلاً مضارعًا ﴿تُتْلَىٰ﴾ يدل علىٰ تجدد هذه التلاوة، وتكرار وقوعها، وتحققها وأنَّ الآيات تتلىٰ عليهم حقيقة، ويؤكد ذلك بناء الفعل للمفعول، ففيه إشارة إلىٰ أنهم يسمعون القرآن من جهات عدة، وكانت مستمرة متجددة.

ولما كان الغرض من الكلام هو الثناء عليهم جاء النظم القرآني بتقديم الجار والمجرور﴿عَلَيْهِمْ﴾ علىٰ نائب الفاعل﴿ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ ،دلالة علىٰ هذا الغرض، وإشارة إليه، كما أنَّ في التقديم عناية بشأنهم، واهتمامًا بهم.

وفي إضافة الآيات إليه- سبحانه- في قوله: ﴿ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ ، تعظيم لهذه الآيات، وتفخيم لشأنها، فحسبك بالآيات قدرًا وشرفًا أن كانت آيات من تكلم، وأنزله، فإذا كانت هذه هي الآيات، وهذا هو قدرها وشرفها، فلا عجب عند ما تتلىٰ علىٰ النبيين، وغيرهم من ذرية آدم أن يخروا لها ساجدين باكين.

وفي إضافة الآيات إلىٰ اسم ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ دلالة علىٰ أن آياته من رحمته بعباده، وإحسانه إليهم، حيث هداهم بها إلىٰ الحق، وبصَّرهم من العمىٰ، وأنقذهم من الضلالة، وعلمهم من الجهالة.

ومجيء جواب الشرط ﴿ خَرُّواْ ﴾ فعلاً ماضيًا؛ فيه دلالة علىٰ تحقق وقوع سقوطهم عند سماع آيات الله، وتدبرها، وتفهمها، فلم يتمالكوا أعصابهم، ولم يتحكموا في أنفسهم، فسرعان ما سقطوا علىٰ أجسادهم خاضعين لله باكين من تأثرهم بالقرآن، و﴿ سُجَّدًا ﴾ جمع ساجد ، وهي حال من الضمير في الفعل ﴿ خَرُّواْ ﴾ مؤكدة لمضمون الفعل؛ « لأن السجود لا يكون إلا من هوي الجسم من أعلىٰ إلىٰ أسفل، و﴿ وَبُكِيّٗا ﴾ جمع باك.. والأول بوزن فُعَّل مثل عُذَّل، والثاني وزنه فُعُول جمع فاعل ،مثل قوم قعود، وهو يأتي لأنَّ فعله بكىٰ يبكي، فأصله: بكوي، فلما اجتمع الواو والياء، وسبق إحداهما بالسكون قلبت الواو ياء، وأدغمت في الياء، وحركت عين الكلمة بحركة مناسبة للياء، والمراد به البكاء الناشئ عن انفعال النفس انفعالًا مختلطًا من التعظيم والخوف »[1].

وجمع- سبحانه وتعالىٰ - بين السجود والبكاء بالنسبة لهم؛ للإشعار بأنهم مع تعظيمهم الشديد لمقام ربهم، فهم أصحاب قلوب رقيقة، وعواطف جياشة بالخوف من الله- تعالىٰ-.

(١)التحرير والتنويرج١٦/ ١٣٣.

**فروق بيانية بين مقامات استعمال الفعل( خرّ) في النظم القرآني.**

تنوعت مقامات التعبير بمادة (خرَّ) في البيان القرآني نظرًا لطبيعة الموقف الذي وردت فيه، وقد جاءت في جميع المقامات بمعنىٰ السقوط والهوي، واستعملت حقيقة، واستعملت مجازا، كما جاءت في صورة الفعل الماضي تارة، وجاءت في صورة الفعل المضارع تارة، وهي علىٰ ترتيب سور المصحف كالآتي.

**أولا: مقام تكليم الله موسى عليه الصلاة والسلام.**

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾ سورة الأعراف آية: ١٤٣

**ثانيا:مقام تأويل رؤيا سيدنا يوسف عليه السلام.**

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَايَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠﴾ سورة يوسف آية: ١٠٠.

**ثالثا: مقام جزاء المستكبرين**

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ سورة النحل آية: ٢٦

**رابعا: سياق الحديث عن المؤمنين من أهل الكتاب.**

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ الإسراء: ١٠٧ – ١٠٩

**خامسا: مقام الامتنان على الأنبياء**

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ ﴾ سورة مريم آية :٥٨ .

**سادسا: مقام فرية المشركين على الله بنسبتهم له الولد.**

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ ﴾ سورة مريم آية: ٩٠

**سابعا: مقام بيان سوء عاقبة المشرك.**

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾ سورة الحج: آية ٣١.

**ثامنا: مقام الحديث عن صفات عباد الرحمن**

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾﴾ سورة الفرقان: آية ٧٣

**تاسعا: بيان صفة المؤمنين وجزاءهم في الآخرة.**

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾﴾ سورة السجدة آية: ١٥

**تاسعا: مقام نعم الله على سيدنا سليمان - عليه السلام -.**

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ سورة سبأ: **آية: ١٤.**

**عاشرا: مقام الحديث عن داود - عليه السلام -**

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾﴾ سورة ص: آية ٢٤.

فخرور موسىٰ - عليه السلام- كما دل عليه السياق في سورة الأعراف أتىٰ علىٰ سبيل الحقيقية، حيث وقع ساقطا علىٰ الأرض من

جلال نور الألوهية علىٰ جبل الطور ، فيدل اللفظ علىٰ كمال السقوط، وشدته، وهيبته، وأحرف الكلمة الخاء والراء لها دور بارز في تصوير معنىٰ الخر، فالخاء بما فيها من استعلاء دلت علىٰ أن عملية سقوط موسىٰ – عليه السلام– بدأت بجسده من أعلىٰ والراء بما فيها من استفال دلت علىٰ أن علمية السقوط تمت بسكون الجسد مطروحا علىٰ الأرض، وقد أكد ذلك وقوع الحال( صعقا) مقرونة بفعل الخر تنبيها علىٰ الهيئة التي صاحبته عند اندكاك الجبل ،حيث غشي عليه من هول ما رآه فيشبه حاله حال من أخذته الصاعقة، و خرور إخوة يوسف – عليه السلام– وأبويه له ' فهو خرور تعظيم وإجلال وهو خرور حقيقي، ففيه إشارة إلىٰ كمال الخضوع، ونهاية الحدة في السقوط والتواضع، أما التعبير بالفعل (خر) في سورة النحل، فقد خرج عن الحقيقة إلىٰ المجاز، حيث استعير الخر الذي هو السقوط والهوي لزوال السقف الذي هو من متممات البناء لما به من المنعة، والغرض من هذه الاستعارة استئصال وإبادة هولاء القوم الذين مكروا في المنعة، فأخذهم الله بسرعة، وأزال تلك العزة بهيئة قوم أقاموا بنيانا عظيما ذا دعائم، وآووا إليه، فاستأصله الله من قواعده، فخر سقف البناء دفعة علىٰ أصحابه، فهلكوا جميعا[1].، والتعبير بالفعل خر في سورتي

(١)التحرير والتنويرج١٤/ ١٣٥ بتصرف يسير.

الإسراء، ومريم في سياق الحديث عن المؤمنين، فهو سقوط الخضوع، والاستكانة، والخشوع لربهم، وهذ نتيجة تأثرهم بآيات الله التي قرئت علىٰ مسامعهم، لكن خرور الجبال الذي تحدثت عنه سورة مريم سقوط حدة وشدة من هول ما نسبه المشركون لخالقهم، فقد نسبوا له الولد، وكلمة( هدًّا) حال مبينة لنوع الخرور، وهو أن يتساقط الجبل شظايا وقطعا ، وأما التعبير بالفعل ( خر) في سورة الحج، فهو خرور إهانة، حيث شبه حال المشرك بالله بحال من سقط من السماء، فاختطفته الطير، فتفرق قطعا قطعا في حواصلها، أو عصفت به الريح في مطاوي الأرض البعيدة، والتعبير بالفعل (يخر) المنفي في سورة الفرقان ليس المقصود منه نفي الخر مطلقا، وإنما المقصود نفي الخرور مقيدا بالصمم والعمىٰ، أي لم يخروا عليها كالصم والعميان في عدم الانتفاع بالمسموع والمبصر، وخرور أهل الإيمان عند سجودهم لربهم كما في سياق سورة السجدة هو خرور خضوع، واستكانة، وخشية لربهم مما يسمعون من آياته، أما التعبير بالفعل (خر) في سورة سبأ فقد أتىٰ علىٰ حقيقته، حيث سقط سليمان – عليه السلام- علىٰ الأرض بعد أن ظلَّ واقفا علىٰ عصاه دابة الأرض تأكلها، وخرور داود -عليه السلام هو خرور- انحناء وخضوع لله، ورجوع إليه .

**المقام الرابع**: تواضع المؤمنين لربهم، وتعظيمهم لحرمات الله وشعائره.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿.. وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ سورة الحج، آية ٣٤- ٣٥.

**المعنى العام**

يأمر الله نبيه- محمدًا- أن يبشر المؤمنين بالجنة الذين من صفاتهم، أنهم إذا ذكر الله اضطربت قلوبهم من خشيته، وخشعت لذكره، والذين صبروا علىٰ ما أصابهم من المكاره، والمتاعب استسلامًا لأمره، وقضائه، وأقاموا الصلاة علىٰ أكمل وجوهها، وأنفقوا بعض أموالهم التي رزقهم الله إياها في سبيل الخير.

**المقصد الأعظم لسورة الحج**

سورة الحج من السور المكية في القول الصحيح إلا بعض آيات، وقال الجمهور: السورة مختلطة، منها مكي، ومنها مدني، وهذا هو الأصح[1]، وآياتها ثمان وسبعون آية، وترتيبها في المصحف الثاني والعشرون، بدأت بنداء الناس جميعا إلىٰ تقوىٰ الله، وتخويفهم من زلزلة الساعة، محذرة، ومنذرة منها، حيث قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾﴾ سورة الحج: آية ١

(١)الجامع لأحكام القرآن، ج١٢/ ١.

ثم تبين بعضًا من أهوال يوم القيامة للحث علىٰ التقوىٰ، والتمسك بها لتنفع صاحبها يوم لا ينفع مال ولا بنون.

يقول الزمخشري- رحمه الله-: «أمر بنىٰ آدم بالتقوىٰ، ثم علل وجوبها عليهم بذكر الساعة، ووصفها بأهول صفة، لينظروا إلىٰ تلك الصفة ببصائرهم، ويتصوّروها بعقولهم، حتىٰ يبقوا علىٰ أنفسهم، ويرحموها من شدائد ذلك اليوم، بامتثال ما أمرهم به ربهم من التردي بلباس التقوىٰ، الذي لا يؤمنهم من تلك الأفزاع إلا أن يتردوا به»[1].

«والذي يغلب علىٰ السورة هو موضوعات السور المكية، وجو السور المكية،فموضوعات التوحيد، والتخويف من الساعة، وإثبات البعث، وإنكار الشرك،ومشاهد القيامة، وآيات الله المبثوثة في صفحات الكون بارزة في السورة وإلىٰ جوارها الموضوعات المدنية من الإذن بالقتال، وحماية الشعائر، والوعد بنصر الله لمن يقع عليه البغي ،وهو يرد العدوان، والأمر بالجهاد في سبيل الله، والظلال الواضحة في جو السورة كلها هي ظلال القوة، والشدة، والعنف، والرهبة، والتحذير، والترهيب، واستجاشة مشاعر التقوىٰ،والوجل، والاستسلام[2].

يلاحظ أنَّ مطلع السورة دل علىٰ مقصدها إذ افتتحت بالحديث عن التقوىٰ، والحث علىٰ التحلي بها، وآيات السورة كلها تآزرت مع بعضها بدءًا من المطلع، وانتهاءًا بالختام في الكشف عن هذا المقصد ووراء هذا

(١)الكشاف،ج٣/ ١٤١.

(٢) في ظلال القرآن،ج٤/ ٢٤٠٦

وذلك، الدعوة إلىٰ التقوىٰ، والوجل، واستجاشة مشاعر الرهبة، والاستسلام تبدأ بها السورة، وتتناثر في ثناياها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ ﴾ ....﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ۝٣٢ ﴾ ... ﴿ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ۝٣٤ ﴾ .. ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٣٧ ﴾ ذلك إلىٰ استعراض مشاهد الكون، ومشاهد القيامة، ومصارع الغابرين، والأمثلة، والعبر ،والصور، والتأملات لاستجاشة مشاعر الإيمان، والتقوىٰ، والإخبات، والاستسلام، وهذا هو الظل الشائع في جو السورة كلها، والذي يطبعها ويميزها[1].

«ومقصودها : الحث علىٰ التقوىٰ، المعلية عن دركة الاستحقاق الحكيم بالعدل، إلىٰ درجة استئهال الإنعام بالفضل، في يوم الجمع»[2]

**علاقة الآية بمقصد السورة**

الآية هنا تمثل امتدادًا طبيعيا لمقصود السورة كلها، فهي تعرض حالة نفسية تنتاب مشاعر المؤمنين عند ذكر الله، أو عذابه، أو عقابه، ألا وهي الخوف، والخشوع لقوة يقينهم، ومراعاتهم لربهم، وكأنهم بين يديه، فضلا علىٰ أنهم يصبرون علىٰ ما أصابهم من مصائب، ويقيمون الصلاة علىٰ

(١)في ظلال القرآن،ج٤/ ٢٤٠٧.

(٢)مَصَاعِدُ النَّظَرِ للإِشْرَافِ عَلَىٰ مَقَاصِدِ السُّوَرِ،ج٢/ ٢٩٤.

أكمل وجه، ويؤدون زكاة أموالهم، وما تحقيق تلك الصفات إلا سبيل لتحقيق التقوىٰ التي هي مقصود السورة.

**التحليل البلاغي**

فصلت هذه الآية عما قبلها للاستئناف البياني، ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾﴾ كأنَّ سائلا سأل عند سماعه قوله: وبشر المخبتين، فقال : من هم أولئك المخبتون الذين أمر الله رسوله أن يبشرهم وما هي صفاتهم؟ فأجيب ببيان صفاتهم، فقال: الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، والصابرين علىٰ ما أصابهم.... فاسم الموصول ﴿ ٱلَّذِينَ﴾ إما أن يكون نعتًا لكلمة المخبتين، أو عطف بيان، أو بدلاً ، والغرض من ذلك التنبيه علىٰ شأن هؤلاء، والتعريف بهم عن طريق ذكر صفاتهم؛ لأنَّ المقام يقتضي ذلك، خاصة، وأنَّ الآية أتت بعد الحديث عن المشركين الذين انحرفوا عن الجادة، وتلوثت عبادتهم بالشرك بالله، وصدوا عن سبيل الله، والمسجد الحرام، ففيه التعريض بالمشركين الذين يعبدون الأصنام، والمقام يقتضي اهتمامًا بشأن هذا التنبيه.

وفي بدء الجملة بأداة الشرط﴿إِذَا ﴾ دلالة علىٰ ارتباط الجواب بالشرط، فقد ارتبط وجل قلوبهم بذكر الله، وتلاوة القرآن عليهم، فكلما تليت عليهم الآيات، وذكر اسم الله، أو ما يتعلق به وجلت قلوبهم.

وبناء الفعل ﴿ذُكِرَ..﴾ ؛ لما لم يسم فاعله؛ للتركيز علىٰ الفعل نفسه، وتسليط الضوء عليه، ولفت الانتباه إليه، وفيه دلالة علىٰ تعلق قلوبهم بهذا الذكر بغض النظر عن من يتلو هذا الذكر، فهي لم تلتفت إلىٰ هذا، بل توجهت هذه القلوب إليه ، ومن ثم كان منها الوجل الذي نعتهم به- سبحانه وتعالىٰ-، وأشار إليه مشيدًا به.

وإنما حذف الفاعل للعلم به والتقدير : إذا ذكر عقاب الله، أو عذابه، أو وعيده، أو حقه العظيم، وجلاله الموجب للخشية أو نهيه، وجلاله، والحذف يفيد الدلالة علىٰ العموم، والشمول، واتساع المعنىٰ لكل ما يتذكره المؤمن من هذه الأمور، كما أنَّ مجيء الذكر مجملاً يتناسب مع الوجل الذي يقوم في قلوب المؤمنين، فذكر الله يكون بذكر اسمه ، أو بذكر عظمته، أو شدة سطوته إلىٰ غير ذلك، وهي كلها داعية لاستحضار عظمته، ومن ثم الوجل منه أشد الوجل، ومن ثم جاء نعت الله للمخبتين بهذه الصفة ﴿وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ ومعناه فزعت لذكره استعظامًا له، وتهيبًا من جلاله، وعزّة سلطانه، وبطشه بالعصاة، وعقابه، وإسناد الوجل إلىٰ القلب مجاز عقلي من باب إسناد الشيء إلىٰ مكانه، وفي ذلك إشارة إلىٰ تأثر قلوبهم، وامتلاءها بالرهبة، والفزع حتىٰ صار القلب ملازما لها.

وتأتي الصفة الثانية، والثالثة ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ﴾ معطوفتين علىٰ قوله: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ ، فالصبر علىٰ المصائب كناية عن تحملهم كل ألوان الأذىٰ، والمحن،

والابتلاءات، وإقامتهم للصلاة كناية عن محافظتهم من أن يقع زيغ في فرائضها وسننها، وقد عبر بالوصف دون الفعل؛ إشارة إلىٰ أنه لا يقيمها علىٰ الوجه المشروع مع ذلك المشاق، والشواغل إلا الراسخ في حبها، فهم - لما تمكن من حبها في قلوبهم والخوف من الغفلة عنها - كأنهم دائمًا في صلاة.

وقد عبر عن جانب الصبر باسم الفاعل ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ؛ للدلالة علىٰ الثبوت والدوام والاستمرار، فالصبر علىٰ البلايا، والمصائب عادة ثابتة فيهم، وهم دائمون عليها لا ينفكون عن الاتصاف بها، وتقييد الصبر بحرف الاستعلاء﴿عَلَىٰ﴾ ما يشعر بعظم تلك المصائب، وقوتها ، وشدتها علىٰ تلك النفوس المؤمنة.

كما عبر عن جانب الصلاة باسم الفاعل﴿وَٱلْمُقِيمِى﴾ ؛ للدلالة علىٰ ثبوتهم علىٰ أدائها والمحافظة عليها ، وقوله:﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ أسند الرزق إلىٰ الله؛ للدلالة علىٰ أنَّ مصدر رزقهم هو الله، وتقديم الجر والمجرور ﴿ وَمِمَّارَزَقْنَٰهُمْ﴾ علىٰ الفعل ﴿ يُنفِقُونَ ﴾ أفاد الاختصاص، حيث قصر المولىٰ – سبحانه– إنفاقهم علىٰ ما رزقهم، فهم لا ينفقون إلا الحلال الطيب الذي رزقهم الله إياه؛ تأكيدًا علىٰ أنهم يؤدون حق الله في ماله؛ لأن المال الذي من الله به علىٰ العبد مال الله.

**المقام الخامس : مقام استماع المؤمنين للقرآن الكريم بآذان واعية، وعيون مبصرة راعية**

**وقد تجسد هذا المقام في سياق الحديث عن ذكر صفات عباد الرحمن في سورة الفرقان.**

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ ﴾سورة الفرقان: آية ٧٣.

**المعنى العام**

الآية الكريمة وردت في صفات عباد الرحمن، فهي تبين أنهم إذا إذا تليت عليهم آيات القرآن ألقوا بمسامعهم إليها، فوعتها قلوبهم، وتفتحت لها بصائرهم، ولم يكونوا كأولئك الذين يضطربون عند سماعها معرضين عنها، لا تخرق آذانهم وتنسد عنها أبصارهم.

**المقصد الأعظم لسورة الفرقان.**

سورة الفرقان من السورة المكية ، عدد آياتها سبع وسبعون آية، ترتيبها في المصحف السورة الخامسة والعشرون، دلت هيئة تركيب مطلعها علىٰ الغرض المقصود منها فتصدير السورة بالفرقان﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ ﴾ وبيان العلة من نزوله ﴿لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ الفرقان: آية١دل علىٰ أن مدار السورة علىٰ كونه – صلىٰ الله عليه وسلم – مبعوثا إلىٰ الناس كافة ولذلك افتتحت بما يثبت عموم رسالة محمد– صلىٰ الله عليه وسلم– إلىٰ جميع الناس بقوله –تعالىٰ–: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ الفرقان: آية١.

«وسياق السورة اختص بالرد علىٰ مطاعن الكفار علىٰ النبوة التي منها قولهم : «كما ذكر القرطبي ومقصود هذه السورة ذكر موضع عظم القرآن ، وذكر مطاعن الكفار في النبوة والرد علىٰ مقالاتهم»(١).

وقد ذكر الإمام البقاعي أن مقصودها: « إظهار شرف الداعي – صلىٰ الله عليه وسلم – بإنذار المكلفين عامة بما له سبحانه من القدرة الشاملة، المستلزم للعلم التام، المدلول عليه بهذا القرآن المبين، المستلزم؛ لأنه لا موجود علىٰ الحقيقة سوىٰ من أنزله فهو الحق، وما سواه باطل، وتسميتها بالفرقان، واضح الدلالة علىٰ ذلك، فإن الكتاب ما نزل إلا للتفرقة بين الملتبسات، وتمييز الحق من الباطل، ليهلك من هلك عن بينة، ويحيىٰ من حي عن بينة، فلا يكون لأحد علىٰ الله حجة، ولله الحجة البالغة»(٢).

**علاقة الآية بمقصود السورة**

الآية محل الدراسة وردت في صفات عباد الرحمن الذين استجابوا لله ورسوله، ولها علاقة وثيقة بمقصود السورة، فعباد الرحمن من جملة العالمين الذين يشملهم إنذار الرسول بالقرآن، فسرعان ما تأثروا به، وتذكروا، وعقلوا ما فيه وانتفعوا بما سمعوا منه، وهذا يدل علىٰ عظم القرآن في قلوبهم؛ علىٰ عكس الكفار الذين هم علىٰ النقيض من المؤمنين سماعهم القرآن، وعدم سماعهم سواء؛ لأنهم كالبهائم في عدم الانتفاع به

(١)الجامع لأحكام القرآن،ج١٣/ ١.
(٢)مَصَاعِدُ النَّظَرِ للإِشْرَافِ عَلَىٰ مَقَاصِدِ السُّوَرِ،ج٢/ ٣١٧.

كما قال- تعالىٰ- : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾ سورة الفرقان: آية ٤٤

وقد وقعت تلك الآية متقابلة مع قوله -تعالىٰ- :﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ ﴾سورة الفرقان: آية ٧٣.

**علاقة الآية بما قبلها.**

لما ذكر الله في الآيات السابقة علىٰ آيات ذكر صفات عباد الرحمن موقف المشركين من القرآن، وهو التغافل عن آيات الله، والاستكبار عنها، وأنهم الذين إذا ذكروا بآيات ربهم يستكبرون عن أن يخروا لله سجدًا وركعًا، وإذا بهم يخرون سجدًا لأهوائهم، فيصمون آذانهم عن كلمة الحق، ويعمون أبصارهم عن رؤية الداعي إلىٰ الحق، ولا يقبلون موعظة، ولا ينصتون للحكمة ذكر هنا حال عباده المؤمنين عندما تتلىٰ عليهم آيات القرآن، حيث لم يقعوا عليها صمًّا لم يسمعوها، وعميًا لم يبصروها، ولكنهم سمعوا، وأبصروا، وانتفعوا بها.

**التحليل البلاغي**

قد جاءت الآية ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ ﴾ معطوفة علىٰ سابقتها ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾ ﴾ ؛ وهذا العطف يعكس مدىٰ كمالهم في كل صفة من الصفات المذكورة علىٰ حد سواء، والتعبير بالموصول ﴿ وَالَّذِينَ ﴾

دون الاكتفاء بالعطف، فيه دلالة علىٰ أهمية الصفة المذكورة بعده مع ما في التعبير بالموصول إبراز ما في حيز الصلة من معنىٰ جليل ، أراد القرآن أن يظهره ويوضحه، وينبه السامعين إليه، ألا وهو« تمييز المؤمنين بمخالفة حالة هي من حالات المشركين، وتلك هي حالة سماعهم دعوة الرسول- ﷺ- وما تشتمل عليه من آيات القرآن، وطلب النظر في دلائل الوحدانية، فلذلك جيء بالصلة منفية لتحصيل الثناء عليهم مع التعريض بتفظيع حال المشركين، فإن المشركين إذا ذكروا بآيات الله خروا صمًّا وعميانًا كحال من لا يحب أن يرىٰ شيئًا، فيجعل وجهه علىٰ الأرض، فاستعير الخرور لشدة الكراهية، والتباعد بحيث إن حالهم عند سماع القرآن كحال الذي يخر إلىٰ الأرض؛ لئلا يرىٰ ما يكره بحيث لم يبق له شيء من التقوم والنهوض، فتلك حالة هي غاية في نفي إمكان القبول»[1].

وفي تقييد الفعل ﴿ ذُكِّرُواْ ﴾ بـ ﴿ إِذَا ﴾ التي تدل علىٰ الجزم بوقوع الشرط بعدها؛ دلالة علىٰ قوة الصلة بين عباد الرحمن، وهذه الآيات، فاتصالهم بها، وحسن استماعهم إليها أمر مقطوع به؛ ليتفقهوا في الدين، ويعملوا بأمر رب العالمين.

وصيغة الفعل ﴿ ذُكِّرُواْ ﴾ فيه دلالة علىٰ كثرة التذكير بها، وكثرة سماعها، أي أعيد ذكرها عليهم، وتكررت تلاوتها علىٰ مسامعهم، وبناء

(١)التحرير والتنوير ج١٩/ ٨٠.

الفعل ﴿ ذُكِّرُواْ ﴾ للمجهول جاء تركيزًا علىٰ الحدث دون النظر إلىٰ من وقع منه ، والتذكير قد يكون بالتلفظ بالشيء، أو باستحضاره في الذهن بحيث لا يغيب عنه.

والمقصود بآيات ربهم هي القرآن الكريم، وما اشتمل عليه من عظات وهدايات.

وأضيفت الآيات إلىٰ الرب – سبحانه وتعالىٰ- في قوله: ﴿ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ ﴾ للتشريف والتعظيم، وللدلالة علىٰ مدىٰ قداستها في نفوسهم، وإضافتهم إلىٰ لفظ الربوبية فيه تشريف لهم، وتوضيح استحقاقهم لهذه الربوبية.

والخرور في قوله: ﴿ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا ﴾ هو السقوط علىٰ غير نظام وترتيب، وفي هذا التعبير مبالغة في بيان مدىٰ تأثير التذكير فيهم، وفيه تعريض بما عليه الكفرة، والمنافقون من إعراض حال التذكير بالآيات، قال الزمخشري- رحمه الله-:« ليس بنفي للخرور، وإنما هو إثبات له، ونفىٰ للصمم والعمىٰ، كما تقول: لا يلقاني زيد مسلما، هو نفىٰ للسلام لا للقاء، والمعنىٰ: أنهم إذا ذكروا بها أكبوا عليها؛ حرصا علىٰ استماعها، وأقبلوا علىٰ المذكر بها، وهم في إكبابهم عليها، سامعون بآذان واعية، مبصرون بعيون راعية، لا كالذين يذكرون بها فتراهم مكبين عليها مقبلين علىٰ من يذكر بها، مظهرين الحرص الشديد علىٰ استماعها، وهم كالصم العميان حيث لا يعونها ولا يتبصرون ما فيها كالمنافقين وأشباههم»[1].

وقوله: ﴿ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا ﴾ مبني علىٰ استعارة بديعة، حيث شبه المولىٰ عدم تغافلهم عن آيات ربهم بعدم خرورهم عليها صما وعميانا؛ تنبيها علىٰ شدة إيقاظهم، وحضور ذهنهم؛ ووقوفهم عندها؛ لأن المراد

(١)الكشاف،ج٣/ ٢٩٥.

أنهم لم يتغافلوا من قوارع النذر حتىٰ يكونوا بمنزلة من لا يسمع ولا يبصر، وفيها التقريع والتعريض للكافرين بأنهم صم عمي، لا ينتفعون بما يقرؤون، ولا يعتبرون بما يشاهدون، ولا يتجاوز آذانهم ما يسمعون.

و ﴿ صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾ حالان من ضمير يخروا، مراد بهما التشبيه بحذف حرف التشبيه، أي يخرون كالصم والعميان في عدم الانتفاع بالمسموع من الآيات والمبصر منها مما يذكرون به، فالنفي علىٰ هذا منصب إلىٰ الفعل وإلىٰ قيده، وهو استعمال كثير في الكلام. وهذا الوجه أوجه[1].

والصمم والعمىٰ هنا يراد به عدم الاعتبار بالآيات، فكأنهم صم لم يسمعوا، أو عميان لم يروا، وهذه أخلاق المشركين، فهم الذين يخرون كالصم والعمىٰ لَا يعتبرون ولا يدركون، وليس المواد وصف المشركين بهذا الوصف السلبي، فقط، بل إنه وصف المؤمنين عباد الرحمن بأنهم علىٰ نقيض وصف الظالمين يخرون سجدا وبكيا، فهم ليسوا كأخلاق هؤلاء لَا يعتبرون، بل يعتبرون ويخرون لله في كل آية يسمعونها، وفي كل عبرة يعتبرونها، وينظرون إلىٰ خلق الله – تعالىٰ – نظرة مدركة مستبصرة مستهدية طالبة الرشاد، فهذا النص يشتمل علىٰ نفي الحال التي يكون عليها المشركون، فهم لَا يخرون صما وعميانا، بل يخرون ناظرين مدركين متفهمين، كقول العرب: مثلك لَا يبخل، فالمراد به في كلام العرب: أنت لَا تبخل[2].

(١)التحرير والتنوير،ج١٩/ ٨١.

(٢)زهرة التفاسير، لمحمد بن أحمد بن مصطفىٰ بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفىٰ: ١٣٩٤هـ)،دار النشر: دار الفكر العربي،ج١٠/ ٥٣٢٣.

**المقام السادس: الحديث عن استماع المؤمنين من أهل الكتاب.**

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۝٥٣ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ سورة.القصص:آية٥٣، ٥٤

**المعنى العام**

يخبر المولىٰ – سبحانه وتعالىٰ- عن حال المؤمنين من اليهود والنصارىٰ عندما يقرأ عيهم كتاب الله، فيقول إنهم إذا تليت علىٰ مساعهم آياته أسرعوا قائلين آمنا به ؛ لأنه الحق من ربنا؛ ولم لا؟ وقد آمنا به قبل نزوله، فإيماننا به سابق علىٰ تلاوته، ومن ثم يعطيهم الله ثوابًا مضاعفًا علىٰ إيمانهم بالقرآن وبصبرهم علىٰ ما يلحقهم من أذىٰ في سبيل الله فضلا علىٰ أنهم يقابلون السيئة بالحسنة، وينفقون مما رزقهم الله.

**المقصد الأعظم لسورة القصص**

سورة القصص، هي السورة الثامنة والعشرون في ترتيب المصحف، وكان نزولها بعد سورة النمل، فترتيب نزولها موافق لترتيبها في المصحف، وعدد آياتها ثمانون آية[1].

«وقد نزلت السورة تضع الموازين الحقيقية للقوىٰ والقيم، نزلت تقرر أن هناك قوة واحدة في هذا الوجود، هي قوة الله وأن هناك قيمة واحدة في هذا الكون، هي قيمة الإيمان،فمن كانت قوة الله معه فلا خوف عليه، ولو كان مجردًا من كل مظاهر القوة، ومن كانت قوة الله عليه، فلا أمن له، ولا

(١)التفسير الوسيط للقرآن الكريم،ج١٠/ ٣٦٩.

طمأنينة، ولو ساندته جميع القوىٰ، ومن كانت له قيمة الإيمان، فله الخير كله، ومن فقد هذه القيمة فليس بنافعه شيء أصلا. »[1].

وشأن هذه السورة شأن السورة المكية في أنها مبنية علىٰ الصراع بين الحق والباطل ومطلع السورة بهيئة تراكيبه دل علىٰ ذلك قوله – تعالىٰ- ﴿ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ ﴾ سورة القصص: آية ٣، فموسىٰ- عليه السلام- يمثل جانب الحق، وفرعون عليه من الله اللعنات يمثل جانب الباطل، ومن ثم يقوم كيان السورة علىٰ قصة موسىٰ، وفرعون في البدء، وقصة قارون مع قومه- قوم موسىٰ- في الختام.. الأولىٰ تعرض قوة الحكم، والسلطان قوة فرعون الطاغية المتجبر اليقظ الحذر ،وفي مواجهتها موسىٰ طفلاً رضيعًا لا حول له ولا قوة، ولا ملجأ له ولا وقاية، وقد علا فرعون في الأرض، واتخذ أهلها شيعًا، واستضعف بني إسرائيل، يذبح أبناءهم، ويستحيي نساءهم، وهو علىٰ حذر منهم، وهو قابض علىٰ أعناقهم»[2].

وقد تعرضت السورة لقضية المشركين، وتكذيب الرسول، ووصف القرآن ، والتوراة أنهما سحران تظاهرا كما قال الله – تعالىٰ- ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ۝٤٨ ﴾ سورة القصص آية: ٤٨

(١)في ظلال القرآن،ج٥/ ٢٦٧٣.

(٢) السابق ،ج٥/ ٢٦٧٤.

والإمام البقاعي يذكر مقصود السورة ناظرا إلىٰ اسمها، وما ورد فيها من القصص، وخاتمتها كاشفًا عن علائق الأنساب بين آي السورة، فيقول : «ومقصودها: التواضع للهِ، المستلزم لرد الأمر كله إليه، الناشيء عن الإيمان بالآخرة، الناشئ عن الإيمان بنبوة محمد – صلىٰ الله عليه وسلم – الثابتة بإعجاز القرآن، المظهر للخفايا، علىٰ لسان من لم يتعلم قط من أحد من الخلق، المنتج لعلو المتصف به، وذلك هو المأخوذ من تسميتها بالقصص، الذي حكم لأجله شعيب بعلو الكليم – عليهما السلام – علىٰ من ناوأه، وقمعه لمن عاداه، فكان المآل وفق ما قال»(١).

**علاقة الآية بمقصود السورة**

لا شك في أن هناك مناسبة كبيرة بين مقصد السورة، وبين تلك الآية ، وهي تتمثل في التعريض بأهل مكة، والتبكيت من شأنهم بذكر حال المؤمنين من اليهود والنصارىٰ ، حيث إنهم آمنوا بالقرآن واستجابوا لله وتواضعوا له مؤكدين أن القرآن هو الحق ، ومن ثم فالآية مرتبطة بمطلع السورة الذي دل علىٰ مقصدها، وارتباطها به ظاهر في الإخبار بأن القرآن آيات الله الواضحة لقوم يؤمنون.

**علاقة الآية بما قبلها**

إنه– سبحانه– لما ذكر في الآيات السابقة في قوله:آ ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ

(١) في ظلال القرآن ،ج٥/ ٢٦٧٤.

﴿كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ سورة.القصص:آية٤٨ كفر قريش بما أنزل علىٰ الرسول- صلىٰ الله عليه وسلم- ، ومطالبتهم إياه بمعجزات حسية، مثل التي أوتيها سيدنا موسىٰ - عليه السلام- بأمر من اليهود كما ذكر مجاهد، قال: اليهود تأمر قريشًا أن تسأل مُحَمَّدًا، مثل ما أوتي موسىٰ، يقول الله لمحمد- صلىٰ الله عليه وسلم- : قل لقريش يقولوا لهم: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفُرُواْ بِمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُ﴾ ؟ نص في الآية علىٰ إيمان طائفة من أهل الكتاب بما أنزل علىٰ محمد - صلىٰ الله عليه وسلم- وذلك لأنهم عرفوا من قبل بما ذكر في كتبهم من نعت النبي - صلىٰ الله عليه وسلم- وكتابه، وكان عددهم أربعين رجلاً من أهل الإنجيل كانوا مسلمين قبل أن يبعث محمد- صلىٰ الله عليه وسلم- ، اثنان وثلاثون من أهل أرض الحبشة قدموا مع جعفر الطيار، وثمانية من أهل الشام[1] .

**التحليل البلاغي**

الآية تحكي حال هؤلاء الطائفة المؤمنة من أهل الكتاب عند استماعهم آيات القرآن فتقول: ﴿وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ﴾ سورة.القصص:آية٤٨ ، والواو هنا واو استئناف جاءت ؛ لإشباع جزء من المعنىٰ له مزيد عناية بالغرض المسوق له

(١)جامع البيان في تأويل القرآن، لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفىٰ: ٣١٠هـ)،تحقيق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م،ج١٩/ ٥٨٨.

الكلام، وهو تأكيد إيمان أهل الكتاب بالقرآن، كما أشار المولىٰ في الآية السابقة في قوله:﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴾سورة القصص آية ٥٢ ، والضمير في به يعود علىٰ القرآن.

وإذا ظرف لما يستقبل من الزمان خافض لشرطه منصوب بجوابه،فهي مضافة لجملة ﴿يُتۡلَىٰ﴾ منصوبة بجوابها، ومن المعروف أنها تفيد التكثير والقطع قال الخطيب: «والأصل في إذا أن يكون الشرط فيها مقطوعا بوقوعه كما تقول: إذا زالت الشمس آتيك»[1]

وقد أفاد التعبير بـ﴿ إِذَا ﴾ تحقيق وقوع الشرط، وأن تلاوة القرآن عليهم قد تحققت، وهذا يشعر برغبتهم الدائمة في الاستماع إلىٰ ما أنزل علىٰ الرسول– صلىٰ الله عليه وسلم– .

ومجيء فعل الشرط ﴿ يُتۡلَىٰ﴾ مضارعا يدل علىٰ تجدد التلاوة واستمرارها، مع استحضار المشهد، وتمثيله أمام العين حتىٰ كأن السامع يراهم، وهم يستمعون إلىٰ تلاوة القارئ، وفرق بين المعنىٰ الذىٰ تأخذه من لفظ تسمعه الآذان ، والمعنىٰ الذىٰ تأخذه من صورة تراها العيون"[2].وبناء الفعل لما لم يسم فاعله يشير إلىٰ أن التلاوة قد تكون من الرسول أو من غيره، وأنها أتتهم من جهات متعددة.

(١)الإيضاح في علوم البلاغة الثلاثة المعاني والبيان والبديع، للخطيب القزويني، طبعة دار الكتب العلمية، الطبعة الأولىٰ،٢٠٠٣م، ١٤٢٤هـ.، ص٧٩.

(٢) شرح أحاديث من صحيح البخاري :ص١٧٠ .

وتقييد الفعل ﴿ يُتْلَىٰ﴾ بالجار والمجرور ﴿ عَلَيْهِمْ ﴾ يدل علىٰ أن تلاوة القرآن ألقيت علىٰ مسامعهم، وقرعت آذانهم، مما جعلتهم يذعنون له، ويصدقون به.

ومجيء جواب الشرط ﴿ قَالُوٓاْ ﴾ فعلا ماضيا جاء مناسبا أتم المناسبة للمعنىٰ؛ إشعارًا بتحقق الوقوع، وأن من شأن مؤمني أهل الكتاب الثابت في حياتهم التصديق، والإيمان بالقرآن؛ لأنهم أخبروا به في كتبهم التوارة والإنجيل.

وجملة ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾ هي مقول القول تعكس الأثر المترتب علىٰ استماعهم للقرآن، وحكاية إيمانهم بالمضي في قوله: ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾ مع أنهم يقولون ذلك عند أول سماعهم القرآن: إما لأن المضي مستعمل في إنشاء الإيمان مثل استعماله في صيغ العقود، وإما للإشارة إلىٰ أنهم آمنوا به من قبل نزوله، أي آمنوا بأنه سيجيئ رسول بكتاب مصدق لما بين يديه، يعني إيمانا إجماليًّا يعقبه إيمان تفصيلي عند سماع آياته، وينظر إلىٰ هذا المعنىٰ قوله: ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴾، أي مصدقين بمجيء رسول الإسلام[1].

والباء في قوله: ﴿ ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾ بما تفيده من معنىٰ اللصوق والتعدية؛ فإنها تدل علىٰ شدة ارتباطهم، وتعلق قلوبهم به، وشدة الحرص علىٰ الإيمان به، وكأن عملية الإيمان بالقرآن أمر مستقر في أحشائهم.

(١) التحرير والتنوير،ج٢٠/ ١٤٤.

هذا وقد جاء قوله: ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾ جملة تعليلية؛ لبيان علة إيمانهم بالقرآن، ففصلت عن سابقتها؛ لما بينهما من شبه كمال اتصال؛ حيث أثارت الأولىٰ ﴿ءَامَنَّا بِهِۦٓ﴾ في ذهن السامع سؤالا تقديره :ما علة إيمانهم به؟ ، فجاءت جملة ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ ؛ بيانا لتلك العلة وإبرازا لها، وقد صدرت جملة التعليل بأم أدوات التوكيد "إنَّ" ؛ لأن الجملة إذا هي دخلت ترتبط بما قبلها، وتأتلف معه وتتّحد به، حتىٰ كأن الكلامين قد أفرغا إفراغًا واحدًا، وكأن أحدهما قد سبك في الآخر؟[1] ،وللاهتمام البالغ بكون القرآن كتاب الله الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وقوله :﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ﴾ تعليل آخر لإيمانهم بالقرآن، يدل علىٰ إقرارهم به قبل نزوله، والضمير في قبله يعود إلىٰ القرآن.

وقد فرق الطاهر بن عاشور بين الاستئنافين فقال: فإن قلت: أىٰ فرق بين الاستئنافين إنه وإنا؟ قلت: الأوّل تعليل للإيمان به، لأن كونه حقا من الله حقيق بأن يؤمن به، والثاني: بيان لقوله آمَنَّا بِهِ؛ لأنه يحتمل أن يكون إيمانا قريب العهد وبعيده، فأخبروا أن إيمانهم به متقادم؛ لأنّ آباءهم القدماء قرءوا في الكتب الأول ذكره وأبناءهم من بعدهم مِنْ قَبْلِهِ من قبل وجوده ونزوله مُسْلِمِينَ كائنين علىٰ دين الإسلام، لأن الإسلام صفة كل موحد مصدّق للوحىٰ[2].

(١) شرح أحاديث من صحيح البخاري :ص١٧٠.
(٢) الكشاف،ج٣/ ٤٢١.

وقد فصلت الآية ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ...﴾ عما قبلها للاستئناف البياني، وكأن سائلا سأل ما جزاء هؤلاء المؤمنين من أهل الكتاب بعد ما آمنوا بالقرآن، وأقروا أنه من عندالله؟ فأجيب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا....

وقد عبر باسم الإشارة الموضوع للبعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ ؛ للإشعار ببعد منزلتهم، وسمو مكانتهم، وهو مشار به إلىٰ مؤمني أهل الكتاب الذين وصفوا بما ذكر من أوصاف، فدل علىٰ أن ما يرد بعده من جزاء، فالمشار جدير به، وهذا من ألطف مواقع اسم الإشارة، حيث يذكر مشارا به إلىٰ شيء قد وصف بأوصاف عديدة، ثم يجعل ما يترتب علىٰ تلك الأوصاف مسندا إلىٰ اسم الإشارة، فيدل اسم الإشارة عندئذ علىٰ أن المشار إليه قد استحق الجزاء المذكور، وصار جديرًا به.

وقد آثر النظم الشريف التعبير بالفعل ﴿ يُؤْتَوْنَ ﴾ دون(يعطون)" وذلك لعظم الأجر الذي آتاه الله إياهم، ولأن الإيتاء يستعمل لما هو أوسع من أعطىٰ في اللغة، فقد يستعمل في الأموال وغيرها، ولأن الإيتاء أقوىٰ من الإعطاء في إثبات مفعوله؛ لأنّ الإعطاء له مطاوع تقول أعطاني، فعطوت، ولا يقال في الإيتاء أتاني فأتيت، وإنما يقال آتاني، فأخذت، والفعل الذي له مطاوع أضعف في إثبات مفعوله من الفعل الذي لا مطاوع له»[1]

(١)الإتقان في علوم القرآن، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفىٰ: ٩١١هـ)تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ ،ج٢/ ٢٦٧.

وإيتاء الله لهم الأجر مرتين جاء مناسبا تمام المناسبة مع إيمانهم بكتابهم، وبالقرآن، حيث أتىٰ الجزاء علىٰ قدر العمل، وقد جاء البيان النبوي مؤكدا علىٰ ذلك الأمر، فقال: « ثَلاَثٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ رَجُلٌ من أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ، ثُمَّ أَدْرَكَهُ النبي- صلىٰ الله عليه وسلم- فَآمَنَ بِهِ، وَاتَّبَعَهُ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَعَبْدٌ مَمْلُوكٌ يُؤَدِّي حَقَّ اللهِ – تَعَالَىٰ- وَحَقَّ سَيِّدِهِ عليه، فَلَهُ أَجْرَانِ وَرَجُلٌ له أَمَةٌ فَغَذَّاهَا، فَأَحْسَنَ غِذَاءَهَا ثُمَّ أَدَّبَهَا، فَأَحْسَنَ أَدَبَهَا، ثُمَّ أَعْتَقَهَا، وَتَزَوَّجَهَا فَلَهُ أَجْرَانِ»(١)

وقد عبر عن مضاعفة الأجر ضعفين بالمرتين؛ تشبيها للمضاعفة بتكرير الإيتاء، وإنما هو إيتاء واحد، وفائدة هذا المجاز إظهار العناية، حتىٰ كأن المثيب يعطي، ثم يكرر عطاءه ففي يؤتون أجرهم مرتين تمثيلة.

والباء" في قوله تعالىٰ: ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ بما تفيده من معانىٰ الملاصقة ، والمخالطة، والمصاحبة، والملابسة، توحىٰ بقوة تمسكهم بالصبر في مواجهة الأذىٰ، ولا سبيل إلىٰ مقاومة الأذىٰ، ودفعه أوسع من الصبر.

والتعبير بالاسم الموصول﴿مَا﴾ وصلته﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ في الآية الشريفة لإظهار جملة الصلة ، وإبراز ما في حيزها من معنىٰ يريد القرآن- ﷺ- إقراره وتوضيحه ؛ لأن ذلك هو المقصود الأهم ، والغرض الأساس من التعريف.

(١)صحيح مسلم لمسلم بن الحجاج أبي الحسين القشيري النيسابوري، الناشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، حديث رقم ١٥٤، ح١/ ١٣٤.

وجملة: ﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ بيان لصفة أخرىٰ من صفاتهم الحسنة، ألا وهي أنهم لا يقابلون السيئة بمثلها، وإنما يعفون ويصفحون، ويقابلون الكلمة الخبيثة بالكلمة الحسنة، والدرء في اللغة بمعنىٰ الدفع[1]، فالحسنة تصارع السيئة وتدمغها، وقد سلك النظم القرآني في تصوير هذا المعنىٰ مسلك المجاز، فشبه دفع السيئة بالحسنة دفع الشيء بعضه بعضا، وحذف المشبه به، ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو الدرء علىٰ سبيل الاستعارة المكنية، وتكمن بلاغة هذه الاستعارة أن فيها إشارة إلىٰ أهمية العمل الصالح، ودوره البارز في دفع السيئة، ودمغها بالإضافة أن الاستعارة صورت المعقول في صورة المحسوس، فالحسنة هي الآلة التي يدفعون بها الشر، والحسنة المقصود بها أعمال الخير.

وقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ بيان لصفة أخرىٰ تدل علىٰ سعة كرمهم، وإسناد الرزق إلىٰ الله يشعر بأنهم ينفقون الحلال الطيب الذي يستحق أن يضاف إلىٰ الله، وأن يسمىٰ رزقًا منه، وعبر بحرف الجر ﴿مِن﴾ صيانة لهم، وكفا عن الإسراف، والتبذير المنهي عنه، لأن ﴿من﴾ للتبعيض، وتقديم الجار والمجرور ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ علىٰ الفعل ﴿يُنفِقُونَ﴾ يدل علىٰ الاختصاص، حيث قصر إنفاقهم علىٰ ما رزقهم الله، فهم لا ينفقون إلا الحلال الطيب الذي رزقهم الله إياه، والمعنىٰ ما ينفقون إلا مما رزقناهم، فهم عن الحرام، وعن الخبيث بمنأىٰ.

(١)لسان العرب ، مادة(درأ).

**مقارنة بين آية سورة القصص و آيات سورة الإسراء**

**آية سورة القصص** ﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ القصص آية: ٥٣

**آيات سورة الإسراء** ﴿ قُلْ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓاْ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ الإسراء آية:١٠٧، ١٠٨، ١٠٩.

**الآيات وردت في شأن أهل المؤمنين من أهل الكتاب ، وهي تتحدث عن موقفهم من القرآن، وما يعكسه القرآن في نفوسهم، فالشبه كبير بين الآيات، حيث بدأت الآية الأولىٰ بأداة الشرط ﴿ إِذَا ﴾ الدالة علىٰ القطع بوقوع الشرط، والفعل المضارع ﴿ يُتْلَىٰ ﴾ ، وكذا آية سورة الإسراء اشتركت معها في أداة الشرط ،وفعل الشرط ﴿ يُتْلَىٰ ﴾ ، تصويرا للتلاوة، وتجددها من حين لآخر، ولكن اختلفتا في جواب الشرط، فآية القصص جواب شرطها دل علىٰ إعلان إيمانهم بالقرآن فور أن فرغ القارئ من تلاوة آيات القرآن عليهم، وقد جاء هذا الإعلان عن طريق التلفظ به ﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ ﴾ ، ولعلهم نطقوا بالإيمان بالقرآن في سورة القصص ؛ لأنه أول عهدهم بسماع تلاوته، فكان من الطبعي أن يكون رد فعلهم هو النطق بالإيمان، كما أن منطوق الآية يؤكد أنهم مؤمنون قبل نزول القرآن؛ والآية اهتمت بقضية الإيمان بالله الذي هو مضمون السورة، ومن ثم فذكر إيمان أهل الكتاب في سياق السورة يعد تعريضا بالمشركين الذين قرئ**

عليهم القرآن، ولم يؤمنوا فضلا عن أن السورة من أولها إلىٰ آخرها جاءت لتعرض بالمشركين لعدم إيمانهم بالله، أما آية الإسراء فجواب شرطها ﴿ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾، يجسد الأثر الحسي الذي ظهر علىٰ صفحات أجسادهم، فقد سجدوا لربهم تعظيما له، وشكرا له علىٰ إنجازه وعده لهم، وتعد الآيات- أيضا- تعريضا بالمشركين، واحتقارا من شأنهم، لإعراضهم عن دعوة رسول الله- صلىٰ الله عليه وسلم-.

**المقام السابع: الثناء على المؤمنين، والتعريض بالمشركين.**

**وقد تجسد هذا المقام في سورة السجدة.**

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ ﴾ سورة السجدة: آية ١٥.

**المعنى العام**

في هذه الآية وما بعدها من سورة السجدة يخبرنا الله – سبحانه وتعالىٰ– عن عباده المؤمنين، وكيف تكون استجابتهم لله رب العالمين عند سماعهم كلام الله سبحانه، حين يقرءون القرآن يستجيبون، ويؤمنون، ويزدادون إيمانًا، وإذا ذكروا بآيات الله – سبحانه– أقبلوا عليها، فتفهموا، وتدبروا، وخروا لله سجدًا في صلاتهم، وفي غير صلاتهم، فهم إذا مرت بهم آية سجود سجدوا لله – سبحانه وتعالىٰ– علىٰ جباههم، وكانوا معظمين لآيات الله سبحانه وخائفين من ربهم سبحانه ومعظمين له.

**المقصد الأعظم لسورة السجدة**

سورة السجدة مكية عدد آياتها ثلاثون آية بدأت السورة بالتنويه بشأن القرآن بأنه منزل من عندالله، وتعرضت لتوبيخ المشركين علىٰ ادعائهم أن القرآن اختلقه الرسول– صلىٰ الله عليه وسلم– من عند نفسه وتعرضت للحديث عن إنكارهم البعث، وساقت لهم الأدلة المادية علىٰ ثبوته وتعرضت لذكر الحساب والجزاء

«والسورة نموذج آخر من نماذج الخطاب القرآني للقلب البشري بالعقيدة الضخمة التي جاء القرآن؛ ليوقظها في الفطر، ويركزها في القلوب: عقيدة الدينونة لله الأحد الفرد الصمد، خالق الكون والناس، ومدبر السماوات، والأرض وما بينهما، وما فيهما من خلائق لا يعلمها إلا الله، والتصديق برسالة محمد- صلّىٰ الله عليه وسلّم- الموحىٰ إليه بهذا القرآن لهداية البشر إلىٰ الله. والاعتقاد بالبعث والقيامة والحساب والجزاء، هذه هي القضية التي تعالجها السورة، وهي القضية التي تعالجها سائر السور المكية. » (١)

ومطلع السورة هنا له قيمة بيانية علاوة علىٰ ما له من بيان المقصد،فالسورة مقصدها الأعظم يدور حول إنذار الكافرين عما دعا إليه الكتاب - كما في السور الماضية- من التوحيد والإيمان بالله، وبوجود البعث بعد الممات حيث قال - تعالىٰ - ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ﴾ سورة السجدة: آية ٣ .

وقد نظر الإمام البقاعي في تحديد مقصود السورة إلىٰ شيئين، الأول هو مطلع السورة، والثاني هو اسم السورة، فقال: « ومقصودها: إنذار الكفار بهذا الكتاب، السَّارِّ للأبرار بدخول الجنة، والنجاة من النار، واسمها "السجدة" منطبق علىٰ ذلك بما دعت إليه آيتها من الأخبار، وترك

(١) في ظلال القرآن،ج٥/ ٢٨٠٢.

الاستكبار، وكذا تسميتها بالمضاجع، وتسميتها بـ (الم تنزيل) مشيراً إلىٰ تأمل جميع السورة، فهو في غاية الوضوح في مقصودها، وتسميتها بالمنقسمة – أيضـًا–، دال عليه من جهة: أنها انقسمت للإعاذة من عذاب القبر، الذي هو مقدمة عذاب النار، وكذا المنجية: فإن مَنْ قَبِلَ الإنذار، نجا من النار»[1].

**علاقة الآية بمقصود السورة**

لا شك أن هناك مناسبة كبيرة بين مقصد السور، وبين تلك الآية ، فهي المقابل لقوله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ﴾ ؛لذا فالآية تعد تعريضا بالمشركين؛ فإنهم إذا كانوا قد كذبوا الرسول– صلىٰ الله عليه وسلم– فيما جاء به من عند الله، ولم ينتفعوا به، وأنكروا البعث بعد ما ظهرت لهم الأدلة علىٰ ثبوته ، فإن الآية تبين موقف المؤمنين من هذا كله، وهو موقف الإيمان، والسجود، واتّباع آيات الله، والانقياد لها، فهم لا يستكبرون كما يفعل الجهلة من الكفرة الفجرة.

**علاقة الآية بما قبلها**

إن الله – سبحانه– لما ذكر في الآيات السابقة علامة أهل الكفر، من طأطأة الرؤوس خجلًا وحياءً مما صنعوا في الدنيا، وذكر ما يلاقون من العذاب المهين يوم القيامة عطف علىٰ ذلك ذكر علامة أهل الإيمان، من تذللهم لربهم، وتسبيحهم بحمده، ومجافاة جنوبهم للمضاجع، يدعون

(١)مَصَاعِدُ النَّظَرِ للإِشْرَافِ عَلَىٰ مَقَاصِدِ السُّوَرِ،ج٢/ ٣٦٢.

ربهم خوفًا وطمعًا، ثم أردفه ذكر ما يلاقون من نعيم مقيم، وقرة أعين، جزاءً لهم علىٰ جميل أعمالهم، ومحاسن أقوالهم.

**التحليل البلاغي**

الملاحظ علىٰ سورة السجدة من بدايتها أنها توجه رسالة إنذار من الله إلىٰ المشركين أن يخضعوا لربهم، ويؤمنوا بالبعث، فقد ذكرهم بآياته؛ ليؤمنوا بها لكنهم قابلوها بالتكذيب، وادعوا زورا وبهتانا أن محمدا- صلىٰ الله عليه وسلم- اختلقه من عند نفسه، كما قال تعالىٰ: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣ ﴾ وقد كفروا بالحق، وبما يجب الإيمان به، وهو البعث.

فالآية التي يدي المقام استئناف ناشئ عن قوله: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُۚ ...ز﴾ الآية [السجدة: ٣]، تفرغ المقام له بعد أن أنحىٰ بالتقريع، والوعيد للكافرين علىٰ كفرهم بلقاء الله، بما أفادت اسمية جملة ﴿ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ۝١٠ ﴾ [السجدة: الآية:١٠] من أنهم ثابتون علىٰ الكفر بلقاء الله دائمون عليه، وهو مما أنذرتهم به آيات القرآن، فالتكذيب بلقاء الله تكذيب بما جاء به القرآن فهم لا يؤمنون، وإنما يؤمن بآيات الله الذين ذكرت أوصافهم هنا[1].

(١) التحرير والتنوير،ج٢١/ ٢٥٩.

والآية تبرز عقيدة أهل الإيمان في القرآن ؛ ألا وهي التصديق بأنه آيات الله المنزل علىٰ رسوله، و تصف حالهم عندما تتلىٰ عليهم آيات ربهم، حيث لم يتمالكوا أنفسهم حتىٰ خروا سجدا علىٰ وجوههم؛ تعظيما لآياته، وخوفًا من عذابه، فضلا علىٰ ذلك أنهم لا يستكبرون عن طاعة الله، وهذه المعاني التي نصت عليها الآية وضعت في قالب القصر بـ﴿إِنَّمَا﴾ حيث قصر المولىٰ – سبحانه– الإيمان بالقرآن علىٰ الذين يسجدون له– تعالىٰ– ويسبحونه عند سماع آيات القرآن العظيم قصر صفة علىٰ موصوف؛ تشهيرًا بعقيدتهم جهة القرآن الكريم ، وتعريفًا لها، وتركيزًا، وتسليطًا للضوء عليهم، فهم أصحاب فطرة نقية، وقلوب سليمة تذعن وتسلم لآيات الله ؛ لذا فالقصر جاء ليوضح، ويقرر، ويؤكد في النفوس الطائفة التي تؤمن بآيات القرآن، والتي إذا قرئت عليهم آياته، أو فسرت لهم تراهم يبادرون ساجدين لله، إيمانًا بتلك الآيات، وخضوعـًا لجلال ربه.

وبقراءة السياق يتضح جليا أن القصر فيها من قبيل القصر الإضافي قصر إفراد؛ لأنه غلب علىٰ ظن النبي –ﷺ–هداية المشركين واستجابتهم لما جاء به من عندالله ، كما استجاب المؤمنون، فقيل له يؤمن بآيات الله الذين إذا ذكروا بها تذكيرًا بما سبق لهم سماعه لم يتريثوا عن إظهار الخضوع لله دون الذين قالوا أإذا ضللنا في الأرض أإنا لفي خلق جديد.

وإيثار التعبير بـ﴿إِنَّمَا﴾ دون غيرها من طرق القصر كالنفي والاستثناء مثلا؛ للدلالة علىٰ أن هذا أمر واضح لا ينبغي أن يرتاب فيه أحد، أو يجهله؛

لأن إنما تستخدم فيما الشأن أن يعلمه المخاطب، لا ينكره، ولا يشك فيه، أو ينزل هذه المنزلة.

والقصر بـ﴿إِنَّمَا﴾ في السياق يعد تعريضا بالكفار الذين ادعوا أن النبي -ﷺ- اختلق القرآن من عند نفسه، والذين أنكروا البعث؛ لأن تصديق المؤمنين بكتاب الله أمر مسلم به لا مشاحة، وهذا تأييس للنبي -ﷺ- من إيمانهم، وتعريض بهم بأنهم لا ينفعون المسلمين بإيمانهم، ولا يغيظونهم بالتصلب في الكفر(١).

وأوثر صيغة المضارع﴿يُؤْمِنُ﴾ في محل المقصور مع أنَّ إيمانهم بالقرآن أمر وقع في الزمن الماضي، لما تشعر به دلالة المضارع من أنهم يتجددون في الإيمان، ويزدادون يقينا وقتا فوقتا.

وقد أتىٰ الفعل ﴿يُؤْمِنُ﴾ مقيدًا بالجار والمجرور﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾ ؛ تربية للفائدة، وتقريرا للمعنىٰ، وتوكيده في النفوس، والمقصود بالآيات هي القرآن، وإضافة الآيات إلىٰ ضمير الجلالة﴿نَا﴾ فيه دلالة علىٰ التعظيم والتفخيم.

ولعل الغرض من تعريف المسند إليه بالموصولية ﴿ٱلَّذِينَ﴾ هو تقرير الغرض المسوق له الكلام ؛ وهو الإشادة بأهل الإيمان الذين صدقوا بآيات القرآن، مع ما فيه من الدلالة علىٰ تفخيم شأنهم، وتعظيم أمرهم.

كما جاء التعبير باسم الموصول "الذين" إثارة وتشويقًا إلىٰ ما في حيز

(١) التحرير والتنوير،ج٢١/ ٢٢٧.

الصلة من معنىٰ جليل، وصف به تلك الطائفة المؤمنة يريد القرآن أن يمكن له ، ويرسخه في قلوب السامعين .

وجملة الصلة﴿إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا.....﴾ جملة شرطية مبنية علىٰ ﴿إذا﴾ الظرفية التي لا تدخل إلا علىٰ المتيقن، أو ما في معناه[1]، وذلك لقطعية وقوع الشرط فيها[2]؛ ولذا كان الغالب في الفعل المستعمل معها أن يكون بلفظ الماضي؛ للإشعار بتحقق الوقوع؛ للدلالة علىٰ أن آيات القرآن تقرأ عليهم، وتلقىٰ علىٰ مسامعهم لا محالة، وهذه الصفة التي تضمنتها الصلة هي حالهم التي عرفوا بها؛ لقوة إيمانهم، وتميزوا بها عن الذين كفروا، وليست تقتضي أن من لم يسجدوا عند سماع الآيات، ولم يسبحوا بحمد ربهم من المؤمنين ليسوا ممن يؤمنون، ولكن هذه حالة أكمل الإيمان، وهي حالة المؤمنين مع النبي-ﷺ- يومئذ عرفوا بها[3]،

وقد بنىٰ فعل الشرط ﴿ذُكِّرُواْ﴾ لما لم يسم فاعله؛ تركيزًا علىٰ الحدث نفسه ، وتسليطًا للضوء عليه؛ لأنه الأهم والأجدىٰ ، مع ما في حذف الفاعل من إفادة العموم، والشمول إيحاءً بكثرة سماعهم آيات القرآن.

ومجيء الفعل﴿ذُكِّرُواْ﴾ في صورة التضعيف يدل علىٰ كثرة

(١) ينظر : البرهان في علوم القرآن : للزركشي : جـ٤/ ٢٠٠ .ت : محمد أبو الفضل إبراهيم – مكتبة دار التراث ـ بالقاهرة – بدون .

(٢)بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح فىٰ علوم البلاغة ـ الشيخ عبد المتعال الصعيدىٰ ـ مكتبة الآداب ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م .:جـ١ / ١٤١.

(٣) التحرير والتنوير،ج٢١/ ٢٢٧، ٢٢٨.

تذكيرهم بتلك الآيات بطرق مختلفة، إما عن طريق سماع تلاوتها في الصلوات الخمس، أو سماعها في خارج الصلاة.

وتعدية الفعل بحرف الجر الباء في قوله﴿بِهَا﴾ فيه دلالة علىٰ تعلق قلوبهم بها وأنها ساكنة في مخيلتهم، لا تغيب عن أذهانهم.

ويأتي جواب الشرط﴿خَرُّواْ﴾ ؛ليعكس تأثرهم بما ذكروا به، وتعظيمهم لله الذي ذكروا بآياته، وشعورهم بجلاله الذي يقابل بالسجود أول ما يقابل، تعبيرًا عن الإحساس الذي لا يعبر عنه إلا تمريغ الجباه بالتراب .

وقوله: ﴿سُجَّدًا﴾ حال مفردة من الضمير في الفعل﴿خَرُّواْ﴾ مؤكدة لمضمون الفعل؛ لأن السجود لا يتأتىٰ إلا عن طريق الخرور، وتلك الحال تعكس الهيئة التي انتقلوا إليها عند سماعهم كلام الله، وهي صيغة مبالغة دلت علىٰ كثرة سجودهم لله، وخضوعهم له، والخر في اللغة معناه: سقط سقوطا سمع منه خرير، والخرير يقال: لصوت الماء والريح وغير ذلك مما يسقط من العلو[1]، فاستعمال الخرور في الآية تنبيه علىٰ اجتماع أمرين السقوط، وحصول الصوت منهم بالتسبيح.

وقوله - تعالىٰ-:﴿وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ بيان آخر يحكي قولهم في السجود، حيث التسبيح بحمد الله، والتنزيه من نسبة القبائح إليه، وعن كل مالا يليق به من الشرك، وقد جاء هذا القول معطوفًا علىٰ جملة ﴿خَرُّواْ﴾

(١) لسان العرب، مادة(خرر).

؛ لاتفاقهما في الخبرية لفظا ومعنىٰ، ذ يقتضي من السجود التسبيح بحمد الله، وفيه التنبيه علىٰ أهمية ذكر الله ، وتعدية الفعل ﴿ وَسَبَّحُواْ﴾ بالباء يدلك علىٰ شدة ارتباطهم بذكر ربهم، وتعلق قلوبهم به.

وقوله: ﴿ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ تقدم فيه المسند إليه علىٰ خبره الفعلي، فأفاد الاختصاص، حيث قصر نفي الكبر عليهم قصر صفة علىٰ موصوف؛ تأكيدا علىٰ تواضعهم، وخضوعهم لله دون المشركين الذين تكبروا عن آيات الله، وأعرضوا، وهذا ما أفصحت عنه السورة بعد ذلك في قوله: ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ٢٢ ﴾سورة السجدة: آية:٢٢.

**المقام الثامن: القشعريرة والليونة عند الاستماع.**

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ سورة الزمر:آية ٢٣.

**المعنى العام**

يخبر المولىٰ في الآية أنه نزَّل القرآن أحسن الحديث، ويبين أنه تشابهت آياته معانيها، وألفاظها حتىٰ بلغت الدقة في الإعجاز والإحكام تنقبض عند تلاوته، وقراءته جلود الذين يخشون ربهم، ثم تلين جلودهم قلوبهم إلىٰ ذكر الله، كما يبين أن القرآن هو الهدىٰ الذي يهدب به من يشاء من عباده ، ويضل به من يشاء.

**المقصد الأعظم لسورة الزمر**

سورة الزمر من السور المكية ، عدد آياتها خمس وسبعون آية، سميت سورة الزمر بهذا الاسم؛ لأن الله تعالىٰ ذكر في آخرها زمرة الكفار الأشقياء مع الإذلال والاحتقار [٧١- ٧٢] وزمرة المؤمنين السعداء مع الإجلال والإكرام[1] بدأت السورة ببيان تنزيل القرآن من عندالله، وحثت علىٰ أمر إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، وتعرضت لتنزيه الله عن مشابهة المخلوقات والنعي علىٰ المشركين في ترك عبادة الله واتخاذ عبادة الأصنام .

(١)التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، : المؤلف :د وهبة بن مصطفىٰ الزحيلي، الناشر : دار الفكر المعاصر – دمشق، الطبعة : الثانية ، ١٤١٨ هـ،ج٢٣/ ٢٣٨.

يقول الأستاذ الدكتور محمد محمد أبو موسىٰ: «المعنىٰ الأم لسورة الزمر هو إخلاص العبادة لله رب العالمين، وأن ما تفرع منه، وما قابله من تخاذ أولياء يقربونهم إلىٰ الله زلفىٰ هو من تمام معنىٰ إخلاص العبادة، وأن هذين النموذجين نموذج من أخلص العبادة ونموذج من اتخذ آلهة قربانا هما اللذين بنيا عليهما كل ما في السورة، وأنها ختمت بسوق أحدهما إلىٰ جنهم زمرا، وسوق الثاني إلىٰ الجنة زمرا»(١)

وقد ذكر –أيضا– أن مطلعها دل علىٰ مقصدها، فقال: « رأيت مطلعها يؤكد ذكر الكتاب، ويرتب علىٰ إنزاله وجوب إخلاص العبادة لله رب العالمين، وقد تكرر ذكر الكتاب في السورة، وتكرر وجوب إخلاص العبادة لله رب العالمين، ولم أجد فرقا بين أن يكون ذكر الكتاب هو المعنىٰ الأم للسورة ، وأن يكون إخلاص العبادة لله رب العالمين هو المعنىٰ الأم ؛ لأن أول كلام في السورة رتب وجوب إخلاص العبادة علىٰ إنزال الكتاب ، فربط بين المعنيين رباطا لا ينفك، ولذلك لا أجد فرقا بين أن يكون المعنىٰ الأم للسورة هو إنزال الكتاب، أو إخلاص العبادة لله رب العالمين»(٢).

**علاقة الآية بمقصود السورة**

لا شك في أن الآية الكريمة تدور في فلك السورة، وتتوافق معها في مقصدها، فهي امتداد طبعي لما دلت عليه السورة من معنىٰ إخلاص العبادة لله ، فالذين تقشعر قلوبهم من خشية الله، ثم تلين قلوبهم وجلودهم إلىٰ ذكر الله لا يكون ذلك منهم إلا وهم في قمة إخلاص دينهم لله.

(١)الزمر–محمد وعلاقتهما بال حم دراسة في أسرار البيان' أ.د/ محمد محمد أبو موسىٰ، مكتبة وهبة ، الطبعة الأولىٰ، ١٤٣٣هـ،٢٠١٢م،ص٧.

(٢)السابق،ص٢٨.

**علاقة الآية بما قبلها**

لما ذكر الله – سبحانه وتعالىٰ- في الآية السابقة ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٢٢ ﴾سورة الزمر:آية٢٣.

أثر تلاوة القرآن علىٰ وقع قلوب المشركين من القسوة نص هنا علىٰ الحالة التي تعتري أهل الإيمان عند استماعه، حيث تقشعر منه قلوبهم، و تلين منه جلودهم.

ويؤكد أستاذنا العلامة محمد محمد أبو موسىٰ علىٰ تلك المناسبة فيقول: «هذه الآية الكريمة لها صلات قوية بالكلام الذي قبلها، وأهم هذه الصلات صلتها بجملة ﴿ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ﴾ ؛ لأن هذه الآية كأنها تفسر لنا سر هذا الغضب الذي تراه في كلمة(فويل) وأن سر هذا الغضب هو أن الكلام الذي تقسو قلوبهم من ذكره، وعن ذكره، هو أحسن الحسن الحديث الموصوف في الآية، وأهم ما يتصل قلوبهم هناك قوله – سبحانه- هنا﴿تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ ، كما أن الآيتين وصفتا حال الضلال عند السماع وصفا منصبا علىٰ القلب، وحالة المهتدين عند السماع وصفا منصبا علىٰ نقاء الفطرة والإخبات ووجل القلب وجلا تقشعر له الجلود، ثم إنك تجد تكرارا في كلمة ذكر الله فريق تقسو قلوبهم من ذكر الله، وفريق تلين جلودهم وقلوبهم إلىٰ ذكر الله»[1]

(١)الزمر، محمد وعلاقتهما بآل حم دراسة في أسرار البيان ،ص ١٦٦، ١٦٧.

ومما يدخل في أمر المناسبة بين الآيتين أنهما قائمتان علىٰ المقابلة المعنوية ، حيث جاءت قسوة القلوب من ذكر الله التي لم تذكر إلا في هذه الآية من الذكر الحكيم في مقابل كلمة تقشعر التي لم تذكر- أيضا- إلا في هذه الآية.

يقول الطاهر بن عاشور: « استئناف بياني نشأ بمناسبة المضادة بين مضمون جملة ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾.ومضمون هذه الجملة هو أن القرآن يلين قلوب الذين يخشون ربهم؛ لأن مضمون الجملة السابقة يثير سؤال سائل عن وجه قسوة قلوب الضالين من ذكر الله، فكانت جملة ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿ مِنْ هَادٍ ﴾ مبينة أن قساوة قلوب الضالين من سماع القرآن، إنما هي لرين في قلوبهم وعقولهم لا لنقص في هدايته»(١).

**التحليل البلاغي**

الآية الكريمة تصف حال الأبرار عند سماع كلام الله، فهم أصحاب قلوب لينة رقيقة رحيمة وجلة تخشع إذا سمعت القرآن يتلىٰ؛ فتنتفع بالذكرىٰ، وتزداد من الهدىٰ، وتشتمل علىٰ التقوىٰ.

وقد بدأت الآية بتقديم اسم الجلالة ﴿ اللَّهُ ﴾ علىٰ الخبر الفعلي ﴿نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ ويرجع سر التقديم إلىٰ أمور:

(١)التحرير والتنوير،ج٢٣/ ٣٨٣.

**أولا:** إفادة القصر، حيث قصر المولىٰ- سبحانه وتعالىٰ- تنزيل الكتاب الموصوف بأحسن الحديث عليه قصر صفة علىٰ موصوف قصرًا حقيقيًا تحقيقيا؛ تأكيدًا علىٰ أن القرآن مصدره من عند الله.

**ثانيا:** تقوية الحكم، وتقريره لدىٰ السامعين، وبذلك يتأكد أن القرآن كلام الله الذي لا يدانيه كلام، ولا يشبهه كلام.

**ثالثا:** التنبيه من بداية الأمر علىٰ شرف هذا القرآن، وتعظيم شأنه ولم لا؟ وهو كلام الله – تعالىٰ- المنزل علىٰ رسوله، كما أن افتتاح الجملة باسم الجلالة يؤذن بتفخيم أحسن الحديث المنزل بأن منزله هو أعظم عظيم.

وقد جاء المقصور ﴿ نَزَّلَ ﴾ فعلا ماضيا، فأفاد تحقيق النزول، ومجيء الفعل مضعفا يوحي بأنه لم ينزل جملة واحدة، وإنما نزل مفرقا في ثلاث وعشرين سنة.

وإسناد الفعل ﴿نَزَّلَ ﴾ إلىٰ ضمير ذي الجلالة،فيه مزيد من التأكيد علىٰ أن الله – سبحانه وتعالىٰ- هو منزل القرآن، ومصدره.

وقد خرج اسم التفضيل ﴿ أَحْسَنَ ﴾ عن حقيقة معناه ، وتمحض للزيادة المطلقة التي لا يلتفت فيها مفضل عليه، وتمحض الوصف التفضيلي للزيادة المطلقة والانفراد في الوصف هو الذىٰ قرره أبو السعود في تفسيره[1]،وقرره أبو حيان في البحر المحيط[2]، ونبه إليه الطاهر بن عاشور في

(١) ينظر إرشاد العقل السليم: ج ٥ص ١٣٨ ٠

(٢) ينظر البحر المحيط، ج ٥ص ٥٣٣ ٠

التحرير والتنوير في معرض تفسيره لهذه الآية الكريمة ، قال: "و أحسن صيغة تفضيل مستعملة للمبالغة في الحسن[1]، وحسن القرآن يرجع إلىٰ أمور كثيرة، منها ما يعود إلىٰ الألفاظ والتراكيب، ومنها ما يعود إلىٰ المعاني، ومنها ما يعود إلىٰ اشتماله علىٰ أخبار الأمم السابقة، والأمور المستقبلية.

ومعنىٰ كون القرآن أحسن الحديث أنه أفضل الأخبار؛ لأنه أشتمل علىٰ أفضل ما أشتمل عليه الأخبار من المعاني النافعة، والجامعة لأصول الإيمان، والتشريع، والاستدلال، والتنبيه علىٰ عظم العوالم والكائنات، وعجائب تكوين الإنسان، والعقل، وبث الآداب، واستدعاء العقول للنظر والاستدلال الحق، ومن فصاحة ألفاظه وبلاغة معانيه البالغين حد الإعجاز، ومن كونه مصدقا لما تقدمه من كتب الله ومهيمنا عليها، وفي إسناد إنزاله إلىٰ الله استشهاد علىٰ حسنه حيث نزله العليم بنهاية محاسن الأخبار والذكر[2].

وقد سمي القرآن الكريم حديثا ؛ لأن شأن الأخبار أن يكون عن أمر حدث وجد، و سمي القرآن حديثا باسم بعض ما اشتمل عليه من أخبار الأمم والوعد والوعيد، وأما ما فيه من الإنشاء من أمر ونهي ونحوهما، فإنه لما كان النبي– صلىٰ الله عليه وسلم– مبلغه للناس آل إلىٰ أنه إخبار عن أمر الله ونهيه[3].

(١) ينظر التحرير والتنوير،ج١٤/ ٢٧٢.
(٢)السابق،ج٢٣/ ٣٨٥.
(٣)السابق ،ج٢٣/ ٣٨٤.

وكتابا بدل من قوله: ﴿ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ ، والبدل زاد من بيان المبدل منه، وإنما سمي القرآن كتابا؛ نظرا إلىٰ المكتوب بين دفتيه.

وكلمة: ﴿ مُّتَشَٰبِهًا ﴾ ، المراد منها أنه متشابهة أجزاؤه متماثلة في فصاحة ألفاظها، وشرف معانيها، فهي متكافئة في الشرف والحسن، ومثاني صفة ثالثة للكتاب، ووصف بهما، وهو مفرد وكلمة ﴿ مَّثَانِيَ ﴾ جمع باعتبار اشتماله علىٰ الكثير من السور، والآيات، والقصص، والمواعظ، والأحكام.

وقد طرح الإمام الزمخشري – رحمه الله– سؤالا حول وصف المفرد بالجمع فقال: « فإن قلت: كيف وصف الواحد بالجمع؟ قلت: إنما صح ذلك؛ لأن الكتاب جملة ذات تفاصيل، وتفاصيل الشيء، هي جملته لا غير، ألا تراك تقول: القرآن سور وآيات ... كما تقول الإنسان عظام وعروق، فإن قلت: ما فائدة التثنية والتكرير؟ قلت: النفوس أنفر شيء عن حديث الوعظ والنصيحة، فما لم يكرر عليها عودا عن بدء لم يرسخ فيها، ولم يعمل عمله، ومن ثم كانت عادة رسول الله–ﷺ– أن يكرر عليهم ما كان يعظ به، وينصح ثلاث مرات؛ ليركزه في قلوبهم، كي يغرسه في صدورهم»[1]

وقوله: ﴿ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ.... ﴾ جملة تبين حال المؤمنين عند استماعهم إلىٰ كلام، أو استئناف مسوق لبيان آثار هذا القرآن الكريم في نفوس قارئيه، وسامعيه بعد بيان أوصافه في ذاته.

(١)الكشاف ج٤/ ١٢٣.

والاقشعرارُ التَّقبضُ: يقال اقشعرَّ الجلدُ إذا تقبَّضَ تقبُّضًا شَديدًا، وتركيبُه من القَشع، وهو الأديمُ اليابسُ قد ضُمَّ إليه الرَّاءُ؛ ليكونَ رُباعيًّا ودَالاًّ علىٰ معنىٰ زائد يُقال: اقشعرَّ جلدُه وقفَ شعرُه [1]، وهو مثل في شدة الخوف، والمراد منه بيانُ إفراطِ خشيتِهم بطريقِ التَّمثيلِ، والتَّصويرِ، أو بيانُ حصولِ تلك الحالةِ، وعرُوضِها لهم بطريقِ التَّحقيقِ، والمعني أنَّهم إذا سمعُوا القُرآنَ، وقوارعَ آياتِ وعيده أصابتُهم هيبةٌ، وخشيةٌ تقشعرُّ منها جلودُهم[2].

ومجيء القشعريرة في صورة التعبير بالفعل المضارع يستحضر حال هؤلاء المؤمنين عندما يقرأون القرآن، أو يسمعونه، فترتعد فرائصهم خوفًا ،ووجلا من شدة ما اشتمل عليه القرآن، كما أن إسناد فعل القشعريرة إلىٰ جلود المؤمنين إسناد الفعل لما هو له؛ لأنَّ الجلد هو مناط الإحساس والإدراك في جسم الإنسان.

وقشعريرة الجلد في حق أهل الإيمان الناتجة عن استماع القرآن، وتدبرهم له جاءت في مقابلة قسوة قلوب الذين كفروا منه؛ لتعكس اختلاف الفريقين في تلقي بيان الله ، فمن برئت نفوسهم من الخسائس تقشعر قلوبهم

(١)اللسان، مادة( قشعر).

(٢)روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لشهاب الدين محمود ابن عبد الله الحسيني الألوسي، تحقيق : علىٰ عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت، سنة الطبع: ١٤١٥ هـ،ج١٢/ ٢٤٨.

عند سماع الحق، ومن تكدرت نفوسهم، وفسدت خباياهم تضيق صدورهم عند ذكر الحق[1].

وتقديم الجار والمجرور ﴿ مِنْهُ ﴾ علىٰ الفاعل ﴿ جُلُودُ ﴾ أفاد الاختصاص؛ تأكيدًا علىٰ خوفهم الشديد من الله- سبحانه وتعالىٰ-؛ لأن الضمير في منه يعود علىٰ القرآن، وقد اشتمل القرآن علىٰ ما يبعث في النفوس الخوف، كالحديث عن النار، والعذاب، والإنذار.

وقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ.. ﴾ كناية عن موصوف، ألا وهم المؤمنون، ووقوع فعل الصلة الخشية فعلاً مضارعًا ﴿ يَخْشَوْنَ ﴾ ؛ فيه دلالة علىٰ تجدد الخشية واستمرارها، فهي تتجدد بتجدد استماعهم للقرآن.

وفي تقييد الفعل يخشون بالمفعول به ﴿ رَبَّهُمْ ﴾ المضاف إلىٰ ضمير المؤمنين، إشارة إلىٰ تقرير الغرض المسوق له الكلام، وهو تعلق قلوبهم بربهم، ومدىٰ خوفهم منه، فهم لا يهابون أحدًا غيره.

وقد جاءت ﴿ ثُمَّ ﴾ في قوله: ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ ﴾ تفيد الترتيب والتراخي؛ لأن المعطوف وصف مرتب علىٰ المعطوف عليه، وهي تشير إلىٰ قدر من تباعد الزمانين، وأنها حين يداخلها الخوف الشديد الذي منه تتقبض الجلود، وتقشعر تظل زمانا، وهي في حالة الخوف هذه، وهو خوف أعظم الخوف، وأسناه وأعلاه، فلم يرزق العبد العارف بربه

(١)الزمر، محمد وعلاقتهما بآل حم دراسة في أسرار البيان، أ.د / محمد محمد أبو موسىٰ، صـ١٦٧.

لحظة أنفس وأغلىٰ من تلك اللحظات التي يذكر فيها ربه، ويخشاه، ويعتريه الخوف الذي تقشعر منه الجلود، وكأن ﴿ ثُمَّ ﴾ هنا تشير إلىٰ تمني طول زمن الغبطة[1]، ولين جلودهم ناتج عن سماعهم آيات الرحمة، ففيها ما يشعر المؤمن بالسرور والسعادة؛ لذا جاء لين الجلود في مقابلة قشعريرتها الناتجة عن سماع آيات العذاب، و"المقابلة" أسلوب يقرر المعنىٰ ويؤكده؛ لأن "ذكر الشيء ومقابله يوضح خصائص كل منهما، فتتحدد المعاني المرادة في الذهن تحديدًا قويًا "[2].

وإنما جمع بين الجلود والقلوب في قوله- تعالىٰ-: ﴿ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ ﴾ ولم يكتف بأحد الأمرين عن الآخر، كما اكتفي في قوله: ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ ؛ لأن اقشعرار الجلود حالة طارئة عليها لا يكون إلا من وجل القلوب وروعتها فكني به عن تلك الروعة.

ولعل الفعل ﴿ تَلِينُ ﴾ جاء متعديا بـ ﴿ إِلَىٰ ﴾ في قوله- تعالىٰ-: ﴿إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ ؛ لتضمينه معنىٰ تسكن وتطمئن، وليكون ذكر الله هو الغاية التي ينتهىٰ إليها المؤمنون في الاطمئنان.

(١)الزمر، محمد وعلاقتهما بآل حم دراسة في أسرار البيان،ص١٨٦، ١٨٧ .

(٢) الصبغ البديعي :د/ أحمد موسىٰ .ص٤٧١ .دار الكتاب العربي- بيروت . طبعة ١٣٨٨هـ- ١٩٦٩م .

وقوله: ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ استئناف بياني، فإنَّ إجراء تلك الصفات الغر علىٰ القرآن الدالة علىٰ أنه قد استكمل أقصىٰ ما يوصف به كلام بالغ في نفوس المخاطبين، كيف سلكت آثاره إلىٰ نفوس الذين يخشون ربهم، مما يثير سؤالا يهجس في نفس السامع أن يقول: كيف لم تتأثر به نفوس فريق المصرين علىٰ الكفر، وهو يقرع أسماعهم يومًا فيومًا؟، فتقع جملة: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ ﴾ جوابًا عن هذا السؤال الهاجس، فالاستئناف قد زاد النفوس تشويقًا ، وأفاض علىٰ المعنىٰ وضوحًا؛ ذلك أن " الجملة الأولىٰ دائمًا مكتنزة، فيها بعض الظلال، والغموض الخفيف ، إنها ليست واضحة جدًا بحيث يمكن الوقوف عليها، والسكوت عندها، بل تثير فيضًا من الاستفسارات، والاستفهامات، تثار حتمًا في نفس المتلقي، تجذبه، وتشركه في الصياغة، ثم تأتىٰ الجملة الثانية ، تجيب عن السؤال ، وتطفئ أشواق النفس ، أو تروىٰ ظمأها ، وتشبع هذا التطلع العاطفي المجهول ، فيتأكد المعنىٰ من الناحية العقلية ، وتتحقق المتعة النفسية ، وتشبع حاسة الفن والجمال"[1].

واسم الإشارة في قوله: ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ... ﴾ الموضوع للبعيد، فيه دلالة علىٰ تعظيم الكتاب، وبعد منزلته؛ تنزيلاً للبعد المعنوي منزلة البعد

(١) أسرار الفصل والوصل في البلاغة القرآنية :د/ صبّاح دراز. مطبعة : الأمانة. ط: الأولىٰ ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م،ص ١١٥، ١١٦.

الحسي، والإشارة إلىٰ القرآن الكريم، وإضافة هدىٰ إلىٰ الله المسند إلىٰ اسم الإشارة قصر بتعريف الطرفين ، حيث قصر هداية الله علىٰ القرآن؛ قصر صفة الهداية علىٰ القرآن؛ تأكيدًا علىٰ أن القرآن هو مصدر هداية الناس إلىٰ رب العالمين.

ومعنىٰ إضافة الهدىٰ إلىٰ الله في قوله: ﴿ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ..... ﴾ راجع إلىٰ ما هيأه الله للهدىٰ من صفات القرآن، فإضافته إليه بأنه أنزله لذلك، ومعنىٰ إسناد الهدىٰ والإضلال إلىٰ الله راجع إلىٰ مراتب تأثر المخاطبين بالقرآن، وعدم تأثرهم بحيث كان القرآن مستوفيًا لأسباب اهتداء الناس به، فكان منهم من اهتدىٰ به، ومنهم من ضل عنه.

وجملة ﴿ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ من متممات الكلام السابق، فهي خبر لاسم الإشارة ذلك، وفيها تعريض بالذين قست قلوبهم من ذكر الله، حيث إنهم لم يهتدوا بالقرآن الذي شرح به صدور أهل الإسلام، فهم علىٰ نور من ربهم، ولم ينعموا بعطاء الله الذي يفتح به القلب، فيسكن فيه الوجل، وتسكن فيه الخشية، وأن يكون هذا القلب في قبضة الكتاب.

ومن الجدير بالذكر أن الآية الكريمة لها بداية ، وهي ذكر الكتاب بأوصافه، ولها وسط، وهي ذكر الذين أفادوا منه، ولها نهاية وهي أن الله الذي أنزل الكتاب، وأتم به النعمة لا يفتح به إلا قلوب من يشاء.

وتأتي جملة: ﴿ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾ تذييلا لختام الآية قوبل فيها الفعل يضلل بالفعل يهدي؛ لأن قوله: ﴿ مَن يَشَآءُ ﴾ أنه لا

يهدي به من لم يشأ هديه وهو ما دلت عليه المقابلة بقوله: :﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ ) ، أي من لم يشأ هديه فلم يقلع عن ضلاله فلا سبيل لهديه.

وجملة: ﴿ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ التي هي جواب الشرط دخل فيها حرف النفي علىٰ الخبر الجار والمجرور، فأفاد قصر نفي الهداية علىٰ من أضله الله، قصر صفة علىٰ موصوف ؛ تأكيدًا علىٰ أن من أضله الله لا يمكن أن يهديه أحد، ويمكن أن يهديه الله

**المقام التاسع: موقف الجن من استماع القرآن.**

**وقد ورد هذا المقام في موضعين من القرآن الكريم في سورتين.**

**الموضع الأول: في سورة الأحقاف**

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ سورة الأحقاف: آية ٢٩ – ٣٢

**المعنى العام**

يقول الله لنبيه محمد اذكر حينما وجهنا إليك نفرا من الجن يستمعون منك القرآن، فلما حضروه قال بعضهم لبعض أنصتوا، فلما تمت تلاوته أسرعوا إلىٰ قومهم منذرين قائلين لهم إنا سمعنا كتابا عظيم الشأن، رفيع القدر أنزل بعد موسىٰ، من صفاته أنه يهدي إلىٰ الحق، وإلىٰ طريق مستقيم فما عليكم إلا أن تجيبوا داعي الله بأن تؤمنوا به كي يغفر الله لكم من ذنوبكم، فإن لم تؤمنوا به، فليس بمستطيع أن يعجز الله عن أخذه وإن هرب في الأرض كل مهرب، وليس له من دون الله نصراء يمنعونه من عذابه.

**المقصد الأعظم لسورة الأحقاف**

سورة الأحقاف سورة مكية عدد آياتها خمس وثلاثون آية ، بدأت بالحديث عن تنزيل القرآن، وإنذار الكافرين، وإعراضهم عما أنذروا به فضلا عما عالجته السورة من أمور تخص العقيدة، مثل قضية الإيمان

بوحدانية الله، وربوبيته المطلقة لهذا الوجود، والإيمان بالوحي، والرسالة، وأنَّ محمدًا- صلىٰ الله عليه وسلم- رسول سبقته الرسل، أوحي إليه بالقرآن مصدقا لما بين يديه من الكتاب،والإيمان بالبعث، وما وراءه من حساب.

«ومحور السورة يدور حول قضية الثواب والعقاب المقتضيين للبعث والحساب، والمعنىٰ الأم في السورة الكريمة ينطلق من قوله تعالىٰ فالطرفان وهما الكفر بالله ورد نبوة المصطفىٰ ليس في السورة كلمة واحدة إلا وهي راجعة إليهما »"[1].

«ومقصودها: إنذار الكافرين بالدلالة علىٰ صدق الوعد في قيام الساعة اللازم للعزة، والحكمة الكاشف لها أتم كشف، بما وقع الصدق في الوعد به من إهلاك المكذبين، وأنه لا يمنع من شيء من ذلك مانع، لأنه لا شريك له، فهو المستحق للإفراد بالعبادة، وعلىٰ ذلك دلت تسميتها بالأحقاف، بما دلت عليه قصة قوم هود - عليه السلام- من التوحيد، وإنذارهم بالعذاب دنيا وأخرىٰ، ومن إهلاكهم، وعدم إغناء ما عبدوه عنهم، ودفنهم تحت أحقافهم، بما تحقق من إعراضهم وخلافهم، ومباعدتهم للحكمة في عبادتهم حجراً، وإنكارهم أن يكون النبي - صلىٰ الله عليه وسلم- بشراً، فسلبت أرواحهم بالريح العقيم، ودمرت أشباحهم بالعذاب الأليم، فدل ذلك قطعًا علىٰ أنه العزيز الحكيم.»[2].

(١)انظر: آل حم الجاثية والأحقاف دراسة في أسرار البيان أ. د محمد محمد أبو موسىٰ ، مكتبة وهبة، الطبعة الأولىٰ ١٤٣٢، ٢٠١١م، ص٣٢٠.

(٢)مَصَاعِدُ النَّظَرِ للإِشْرَافِ عَلَىٰ مَقَاصِدِ السُّوَرِ،ج٢/ ٤٨٠.

**علاقة الآيات بمقصد السورة**

الآيات الكريمات تبين وصف القرآن علىٰ لسان نفر من الجن بعد ما سمعوه من رسول الله مباشرة، فهي بذلك تبرز مشهدا من مشاهد قبولهم الحق، وإيمانهم به، فلم يحيدوا إلىٰ الضلال، ولم يعدلوا عن الهدىٰ إلىٰ طريق العماية، والخسران كما فعل المشركون الذين أعرضوا عما أنذروا به من الآيات البينات حين رفضوا الحق، ووصفوه بالسحر المبين، وإنما لما أنذروا استجابوا، وصاروا منذرين لقومهم، وهي صورة مقابلة لما قبلها مقابلة ظاهرة ، وكأنها مع قبلها من الآيات جسد واحد لاتتم صورة السورة إلا بها.

**علاقة الآيات بما قبلها**

بالنظر في الآيات السابقة علىٰ هذه الآيات يجد المتأمل أن السورة تدور حول حقيقة واحدة، وهي بيان بطلان شرك الكفار في عبادة الشركاء، وبطلان رفضهم للنبوة، وأنهم عما أنذروا معرضون، وأنهم طولبوا بنبذ الشرك ، وبالإيمان بما أنزل الله من آياته البينات التي تتلىٰ عليهم فأعرضوا، ذكر في تلك الآيات أن هذا النفر من الجن سمع ما أنزل علىٰ الرسول فآمنوا، وولوا إلىٰ قومهم منذرين، وهي صورة مقابلة لما قبلها مقابلة ظاهرة، وكأن الله – سبحانه وتعالىٰ– يقول لنبيه: إذا كان قومك أعرضوا عنك وانصرفت قلوبهم عنك، فإن هناك نفرا من الجن يستمعون ما أنزل إليك، ويؤمنون به بل ويذهبون إلىٰ قومهم منذرين.

**التحليل البلاغي**

الواو في قوله: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا.... ﴾ من باب عطف القصة علىٰ القصة حيث أتىٰ ما بعدها معطوفا علىٰ قوله:﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ .....﴾ ويرجع سر العطف هنا إلىٰ التضاد القائم بين طرفي القصتين، حيث إنَّ عادًا قابلت دعوة هود بالصد والرفض، والسخرية، والاستهزاء علىٰ عكس هؤلاء النفر من الجن الذي استمعوا القرآن من النبي- ﷺ- فامنوا به ،وأنذروا قومهم به.

والعامل في تلك الجملة المعطوفة محذوف ، والتقدير: (واذكر إذ صرفنا)، وقد جاء الحذف تركيزًا علىٰ ذكر الزمن الذي صرف الله إليه هذا النفر من الجن، وقد كان ذلك عندما مرجعه من الطائف عندما وجد من ثقيف أشد ما وجد، يقول مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ قَالَ: ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللهِ – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- انْصَرَفَ رَاجِعًا مِنَ الطَّائِفِ إِلَىٰ مَكَّةَ حِينَ يَئِسَ مِنْ خَيْرِ ثَقِيفٍ حَتَّىٰ إِذَا كَانَ بِنَخْلَةَ قَامَ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ يُصَلِّي فَمَرَّ بِهِ النَّفَرُ مِنَ الْجِنِّ الَّذِينَ ذَكَرَهُمُ اللهُ، وَهُمْ فِيمَا ذُكِرَ لِي سَبْعَةُ نَفَرٍ مِنْ أَهْلِ نَصِيبِينَ أَسْمَاؤُهُمْ فِيمَا بَلَغَنِي: حَسًا، وَمَسًا، وَشَاصِرَةُ، وَنَاصِرَةُ، وَابْنا الْأَرَبِ، وَأَبْيَنُ، وَأَخْضَمُ، فَاسْتَمَعُوا لَهُ فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ قَدْ آمَنُوا وَأَجَابُوا إِلَىٰ مَا سَمِعُوا فَقَصَّ اللهُ عَلَيْهِ خَبَرَهُمْ فِي الْقُرْآنِ ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [الأحقاف: ٢٩] إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأحقاف: ٣١] وَقَالَ: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ

نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ ﴾[الجن: ١] إِلَىٰ آخِرِ هَذِهِ السُّورَةِ[١]

وإسناد الفعل صرف إلىٰ {نا} العظمة فيه بيان أن الله – سبحانه– بيده مقاليد الأمور، يهدي من يشاء من خلقه إلىٰ صراطه المستقيم، وفيه شيء آخر وهو أن نواصي قلوب الخلق في يد خالقه، يصرف من يشاء إلىٰ ما يشاء، ويصرف من يشاء عن ما يشاء؛ لأن القلوب لا تنصرف إلىٰ شيء إلا إذا صرفها الله[٢].

وتقديم الجار والمجرور﴿إِلَيۡكَ﴾ علىٰ المفعول به﴿نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾أفاد الحصر؛ مما يؤكد أن رسالته–ﷺ– رسالة عالمية شملت الإنس والجن، فصرف نفر من الجن لم يكن لأحد سواه من الأنبياء.

وتنكيره﴿نَفَرٗا﴾ وهو في الأصل يطلق علىٰ العدد من الناس ،جمع نَفَرٍ، وهم رَهْطُ الإنسان وعشيرته، وهو اسم جمع يقع علىٰ جماعة من

(١)الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري، لمحمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق : د. مصطفىٰ ديب البغا أستاذ الحديث وعلومه في كلية الشريعة – جامعة دمشق الناشر : دار ابن كثير ، اليمامة – بيروت الطبعة الثالثة ، ١٤٠٧ – ١٩٨٧، حديث رقم ٧٣٩، كتاب صفة الصلاة، باب الجهر بالقراءة صلاة الفجر ،ج١/ ٢٦٧، صحيح مسلم لمسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري الناشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي، حديث رقم ٤٤٩ في الصلاة باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة علىٰ الجن ،ج١/ ٣٣٢.

(٢)انظر: آل حم الجاثية والأحقاف دراسة في أسرار البيان ،٥٥٧.

الرجال خاصة ما بين الثلاثة إِلىٰ العشرة، ثم إن إطلاقه علىٰ الجن من باب تنزيل الجن منزلة الإنس دل علىٰ أنهم عدد قليل جدا لا يتجاوزن العشرة، جاء عَنْ زِرٍّ في قوله- تعالىٰ- ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ [الأحقاف: ٢٩] قَالَ: «كَانُوا تِسْعَةَ نَفَرٍ فِيهِمْ زَوْبَعَةُ»(١)

وفي التعبير بالنفر دليل غلىٰ أنهم من الجنس غير المألوف الذي ينفر منه الناس.

ومن في قوله ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ بيانية دلت علىٰ أن هذا النفر من الجن، وجملة ﴿يَسْتَمِعُونَ ﴾ جملة فعلية فعلها مضارع حال من الجن تصور حال هؤلاء النفر وأن الله صرفهم وهم علىٰ هذا الوصف من الاستماع الذي أقبلوا عليه بحب ونشاط.

ومجيء الجملة الحالية في ثوب الفعل المضارع فيه دلالة علىٰ تجدد الاستماع واستمراره، مع ما في دلالة صيغة الافتعال ﴿يَسْتَمِعُونَ ﴾ علىٰ عنايتهم، واهتمامهم، وغبطة نفوسهم ،ووفرة نشاطهم، وحضورهم أمام عظمة هذا القرآن.

وقد أتىٰ فعل الاستماع مقيدا بالقرآن؛ تربية للفائدة، وإشعارًا بعظمة القرآن؛ لأنه طريق الهداية إلىٰ الحق، والجن لم يستمعوا من النبي -ﷺ-

(١)المستدرك علىٰ الصحيحين، لأبي عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفىٰ: ٤٠٥ هـ)،تحقيق: مصطفىٰ عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولىٰ، ١٤١١ – ١٩٩٠،ج٢/ ٤٩٥.

جميع القرآن، وإنما استمعوا بعضا من آياته، وهي التي قرآها النبي -ﷺ- في صلاة الفجر، وإنما عبر بالقرآن وأراد جزأه؛ تنزيلا للجزء منزلة الكل؛ إذ الجزء من القرآن حاكم علىٰ الكل، والكل حاكم علىٰ جزئه.

وقوله: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ﴾ يفيد أنهم استمعوا بعد الحضور، وفي الوقت ذاته يعكس مدىٰ هيبتهم من ذي الجلال والإكرام مع ما فيه من الدلالة علىٰ الأدب العالي الذي يتمتع به هذا النفر من الجن، فليس الكلام الذي يقرأ علىٰ مسامعهم كلام بشر حتىٰ يتكلموا في حضرته، وإنما هو كلام رب العالمين الذي يأخذ بتلابيب القلوب إليه.

والفاء في قوله: ﴿فَلَمَّا﴾ رتبت ما بعدها علىٰ ما قبلها مع ما فيها من الدلالة علىٰ سرعتهم، وشوقهم، ورغبتهم في سماع القرآن، وكأن صوت القرآن يتردد في آذانهم، وهم منصرفون إلىٰ النبي -ﷺ- وقبل أن يحضروا، و﴿لمَّا﴾ أداة الشرط دلت علىٰ وقوع جوابها عقب شرطها بلا مهلة، وفعل الشرط ﴿حَضَرُوهُ﴾ يدل علىٰ تحقيق الحضور وتأكيده، وأنهم حضروا حضورًا حسيا بأجسادهم، وحضروا حضورا معنويًا، حيث تعايشت نفوسهم مع القرآن، ومعانيه، وألفاظه، وحروفه.

والضمير في الفعل ﴿حَضَرُوهُ﴾ يعود إلىٰ القرآن، وتعدية فعل حضروا إلىٰ ضمير القرآن تعدية مجازية؛ لأنهم إنما حضروا قارئ القرآن، وهو الرسول -ﷺ-.

وجواب لما الشرطية ﴿قَالُوٓاْ﴾ جاء في ثوب الماضي فيه دلالة علىٰ صدور القول منهم جميعا، وذلك لأن إسناد الفعل إلىٰ ضمير الجماعة فيه دلالة علىٰ أنهم فور حضورهم جميعا قالوا في صوت واحد وفي نفس واحد أنصتوا، وهذا يدل علىٰ حرصهم الشديد علىٰ الاستماع، وعلىٰ الشغف والحب والميل إلىٰ سماع الحق.

وتبدو الدقة القرآنية في كلمة ﴿أَنصِتُواْ﴾ والإنصات أبلغ من الاستماع؛ لأنه" دون "الإسكات، أو الإصمات ؛ ولأنَّ "السكوت والاستماع للحديث"[1]، وذلك أدعىٰ إلىٰ سماع القرآن، ووصول معانيه، وتوجيهاته إلىٰ نفوسهم بسهولة ويسر، كما أنَّ الإنصات فيه طلب التدبر والتفقد والوعي بما يسمع؛ لذا لم تأت كلمة أنصتوا في القرآن إلا في موضعين هذا واحد منهما، والآخر في سورة الأعراف في قوله: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ سورة الأعراف،آية٢٠٤.، والموضعان وردا في ذكر أدب الاستماع لكلام رب العالمين، والموضعان اجتمع فيهما الاستماع والإنصات مما يدل علىٰ أنهما متلازمان، وإن كان الإنصات يزيد عليه لما فيه من تفريغ الخاطر، وإحضار النفس، وحسن التلقي، والوسيلة المثلىٰ للتدبُّر من أجل الفهم والعمل[2].

(١) اللسان : (نصت) .

(٢)انظر: آل حم الجاثية والأحقاف دراسة في أسرار البيان،ص٥٦٢.

والضمير في كلمة ﴿أَنصِتُواْ﴾فيه دلالة علىٰ أنهم جميعا حث بعضهم بعضا علىٰ السكوت، وكلمة ﴿أَنصِتُواْ﴾ هي لب هذه الآية، وقطب رحاها بل هو مفتاح السر الذي فتح لهم باب العلم بما سمعوا فأسرعوا ملبيين نداء الحق مؤمنين بما أنزل علىٰ الرسول، وتحولوا من دعاة إلىٰ الكفر إلىٰ دعاة للإيمان، لذا أتىٰ قوله: ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ ؛ ليعكس الأثر الإيجابي الناتج فور انتهاء النبي-ﷺ- من القراءة، وجاء معطوفا علىٰ جملة ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ... ﴾؛ بالفاء؛ لتعكس سرعة تتابع الأحداث، وتواليها فما إن صرفهم المولىٰ حتىٰ حضروا قراءة النبي-ﷺ- واستمعوا له، وأنصتوا وولوا منذرين، وبناء الفعل قضي للمجهول؛ للعلم بالفاعل و التركيز علىٰ الحدث نفسه ، وتسليط الضوء عليه ، وكلمة﴿وَلَّوْاْ﴾ هي جواب لما الحينية دلت علىٰ سرعة تبلغيهم قومهم ما سمعوه من النبي-ﷺ- وهذا يدل علىٰ حرصهم الشديد في هدايتهم، وهذا شأن من سمع الحق أن ينتفع بما سمع، وينفع قومه بما انتفع[1].

وكلمة﴿مُّنذِرِينَ﴾ حال من الضمير في كلمة ﴿وَلَّوْاْ﴾ دلت علىٰ تخويفهم قومهم، وتحذيرهم من عذاب الله، وقد رسمت الحال الصورة التي ينبغي أن يكون عليها الداعية إلىٰ الله، وما يتصف به، وفي الحقيقة أنَّ

(١)آل حم الجاثية والأحقاف دراسة في أسرار البيان،:صـ٥٦٠

الجن لم يكونوا منذرين وقت التولية، وإنما أنذروهم عند حضورهم، وهذا من المجاز المرسل، حيث عبر بالمسبب وأراد السبب، فقد عبر بالفعل عن إرادة الفعل، وتكمن بلاغة هذا المجاز في التأكيد علىٰ أن الجن سلكوا الطريق الصحيح في هداية قومهم، ألا وهو طريق الإنذار.

ثم إنك عندما تسمع جملة ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ تجد أنها تثير في عقلك سؤالا تقديره: وماذا قال هؤلاء الجن عندما أنذروا قومهم؟، فجاء قوله: قالوا يا قومنا.. جوابا عما قبله، ففصل بينهما لشبه كمال الاتصال، وتكمن بلاغة هذا الفن في تشويق النفوس، وتطلعها إلىٰ معرفة الجواب، فإذا ما عرفته ثبت واستقر.

والفعل ﴿قَالُوٓاْ﴾ فعل ماض أسند إلىٰ ضمير جماعة الإنس؛ حيث دل علىٰ أن جميع الجن الذين سمعوا القرآن من النبي -ﷺ- نطقوا في صوت واحد بالحق الذي كفر به أهل مكة ، وأقروا أن القرآن كلام الله أنزله الله علىٰ النبي -ﷺ-

وقد جاءت جملة القول مفتتحة بـ﴿يا﴾ النداء؛ الموضوعة في اللغة للبعيد؛ لأن المقام مقام دعوة وإنذار، وذلك لما في النداء بتلك الصيغة من إظهار العناية، والتأدب، والتلطف مع قومهم؛ طلبًا للإسراع بالاستجابة لما يدعونهم إليه من الإيمان بالقرآن الذي أنزل علىٰ رسولنا.

وقد أعانهم علىٰ ذلك استخدام "يا" بصوتها المفتوح المتسع مبالغة في طلب الالتفات، وزيادة في الحث علىٰ الإقبال احتفاءً بأمر المنادىٰ له ، ثم

إنهم قد أودعوا هذا المد المتتابع رغبة في التنبيه والإيقاظ والإشعار بأن ما يدعونهم إليه أمر جلل.

وإنما نادوهم بـ﴿يَٰقَوْمَنَآ﴾ مضافة إلىٰ ضمير المتكلمين؛ لما في ذلك من إظهار الحرص، والعطف، والخوف عليهم؛ ترغيبًا في استجابتهم لداعي الله كما استجابوا، وفيه كناية عن إمحاض النصح، وحب الخير لهم، ففيه حث علىٰ الامتثال للموعظة.

وقولهم﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا﴾ هي جملة مقول القول أكدت بـ﴿إِنَّ﴾ لغرابة الخبر، وحرصهم علىٰ تثبيته وتقريره في نفوس قومهم؛ لأن الجن لم يسمعوا القرآن من قبل ذلك، فهو بالنسبة إليهم كلام جديد، في معانيه.

وقد عبر القرآن بلفظ ﴿سَمِعْنَا﴾ دون (إنا استمعنا) مع أنهم انصرفوا، وهم يستمعون، وليس وهم يسمعون، ولا يصح أن يقال: إنا استمعنا؛ لأنهم لم يقصدوا في بلاغهم يقولون إنا تكلفنا الاستماع ولا إننا قصدنا إلىٰ الاستماع، وإنما أرادوا سمعنا من غير قاصدين إلىٰ السماع، والذي استمع لا بد أن يكون قاصدًا، والذي سمع لابد أن يكون جاءه الصوت من حيث لم يقصد إليه.[1]

والمقصود بكلمة ﴿كِتَٰبًا﴾هو القرآن، وسمي القرآن كتابا باعتباره مدونا بالأقلام، كما سمي قرآنا باعتباره متلوا، وفي تسميته بهذين

(١) آل حم الجاثية والأحقاف دراسة في أسرار البيان ص٥٥٦، ٥٥٧.

الاسمين إشارة إلىٰ أن من حقه العناية بحفظه في موضوعين لا في موضع واحد، أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعًا، أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرىٰ.(١)

وقوله: ﴿ أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ ﴾ فيه إشارة بينة إلىٰ أن القرآن آخر الكتب السماوية التي نزلت إلىٰ أهل الأرض؛ ليكون خاتمها، كما فيه إشارة إلىٰ أنَّ هذا الجن كانوا علىٰ علم بترتيب نزول الكتب السماوية ، وإنما قالوا من بعد موسىٰ دون ذكر بقية الكتب؛ لأن هذه الكتب كانت مكملة لكتاب موسىٰ -عليه السلام-.

وقوله﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ وقعت كلمة مصدقا اسم فاعل دلت علىٰ ثبوت تصديق القرآن للكتب السماوية قبله فيما جاءت به من شرائع، فالقرآن هو الكتاب الأم لها.

وقوله تعالىٰ: ﴿ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾، يصور القرآن في صورة هاد يرشد صاحبه المتمسك به إلىٰ الخير، وفيه إشارة إلىٰ أنهم كانوا ضالين الطريق حتىٰ هدوا إليه بفضل ما سمعوه من القرآن، والتعبير بالفعل المضارع﴿يَهۡدِيٓ﴾ يصور لك الحدث ،حتىٰ كأنك تراه رأي ، مع ما فيه من تجدد الهداية واستمرارها، وقد جاءت ﴿إِلَى﴾

(١) النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، د/ محمد بن عبد الله دراز (المتوفىٰ : ١٣٧٧هـ) الناشر: دار القلم للنشر والتوزيع، الطبعة : طبعة مزيدة ومحققة ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م،ص٤١

الغائية، بدلالتها علىٰ القصد والانتهاء، لتبرز الطريق الذي تنتهي إليه هداية القرآن ألا وهو طريق الحق.

وإنما جاء عطف طريق مستقيم علىٰ الحق؛ لأن الطريق المستقيم سبب موصل إلىٰ الحق، ولولاه ما اهتدىٰ الإنسان إلىٰ معرفة الحق واتباعه.

**والمراد بالطريق المستقيم**: ما يسلك من الأعمال والمعاملة. وما يترتب علىٰ ذلك من الجزاء، شبه ذلك بالطريق المستقيم الذي لا يضل سالكه عن القصد من سيره، ويجوز أن يراد بالحق ما يشمل الاعتقاد والأعمال الصالحة ويراد بالطريق المستقيم الدلائل الدالة علىٰ الحق وتزييف الباطل فإنها كالصراط المستقيم في إبلاغ متبعها إلىٰ معرفة الحق(١).

والنداء في قوله: ﴿ يَٰقَوۡمَنَآ ﴾ مع مجيئه معرفا بالإضافة فيه زيادة تنبيه وإيقاظ، وحرص من هؤلاء النفر علىٰ هداية قومهم؛ لأنهم منهم، ومن بني جنسهم، وقد أظهروا هذا الحرص من خلال تكرار لفظ القوم مرتين ، ومن خلال تتابع حرف المد في (يا) وفي ضمير الإضافة(نا)، حيث أفرغوا فيه طاقاتهم الصوتية؛ رغبة في إجابتهم للأمر الذي دعوا إليه؛ وليلقىٰ قبولا في النفوس، ويعد هذا النداء تمهيدا لما أتىٰ بعده من فعل الأمر ﴿أَجِيبُواْ﴾ حيث إن : النداء يوقظ النفس، ويلفت الذهن، لأنه طلب ودعاء فإذا ما جاء الأمر صادفا نفسا مهيأة يقظة فيقع منها موقع الإصابة حيث تتلقاه بحس واع

(١):التحرير والتنوير ،ج٢٦/ ٦٠.

وذهن متنبه، وهذا دليل علىٰ عناية الآمر بأمره، ورغبته في إعداد النفوس لتلقيه[1].

وفعل الأمر: ﴿أَجِيبُواْ﴾ فيه حث وتحريض علىٰ الاستجابة لداعي الله، ولعل التعبير جاء بفعل الإجابة لغرض حمل المخاطبين علىٰ الإيمان بما جاء به الداعية، والمقصود بداعي الله هو القرآن الكريم، وسمي القرآن الكريم داعية علىٰ سبيل المجاز؛ تشبيها له بالداعي الذي يدعو إلىٰ ربه؛ لأنه يشتمل علىٰ طلب الاهتداء بهدي الله، فشبه ذلك بدعاء إلىٰ الله، واشتق منه وصف للقرآن علىٰ سبيل الاستعارة التبعية، وتكمن القيمة البلاغية لتلك الاستعارة في جعل القرآن داعية يدعو الإنس والجن إلىٰ الاهتداء بهديه.

وقيل: إن المراد بداعي الله هو النبي -ﷺ-وهذا يؤكد مدىٰ عالمية رسالة الإسلام، فهي رسالة الىٰ الجن والإنس، وإضافة داعي إلىٰ الله من باب إضافة الشيء إلىٰ مصدره؛ لأن هو الله الذي يرس الرسل لتدعو إليه.

وإضافة كلمة داعي إلىٰ الله فيها تنبيه علىٰ شرف هذا الداعي وتعظيمه؛ لأنه رسول الله إلىٰ الناس يدعوهم إلىٰ الحق وإلىٰ صراط مستقيم.

وقد جاء قوله: ﴿وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ معطوفا علىٰ قوله: ﴿أَجِيبُواْ﴾ من باب عطف الخاص علىٰ العام؛ تنبيها علىٰ أهمية الإيمان بالله، إذ هو أول

(١)دلالات التراكيب، دراسة بلاغية، د/ محمد أبو موسىٰ، مكتبة وهبة، ط: الرابعة١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م،ص٢٥٦.

الأمور المطلوبة منهم، وهو داخل في الأشياء التي يطلبها الداعي منهم، ثم يأتي تباعا لذلك الإيمان بالرسل والكتب واليوم الآخر.

والباء في ﴿ بِهِۦ ﴾ بما فيها من معنىٰ الإلصاق توحي برغبة هذا النفر من الجن بإيمان إخوانهم بالله، وبالقرآن؛ لأن الضمير في ﴿ بِهِۦ ﴾ إما أن يعود إلىٰ اسم الجلالة ﴿ الله ﴾، فيكون المعنىٰ آمنوا بالله، أو يكون عائدا إلىٰ داعي الله الذي هو كناية عن القرآن، ويكون المعنىٰ آمنوا بما جاء به أو بما جاء فيه، وقوله: ﴿ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ ﴾ جواب لفعل الأمر ﴿أَجِيبُواْ ... ﴾ دل علىٰ ارتباط المغفرة بالإجابة والإيمان بالله، مما يؤكد أن الإيمان بالله سبب كبير جدًا في مغفرة الذنوب ، والتعبير بالفعل المضارع ﴿ يَغۡفِرۡ ﴾ فيه دلالة علىٰ تجدد المغفرة واستمرارها، وأن مغفرة الله لعبده لا تتوقف طالما أنه حقق شروطها.

ومن في قوله ﴿مِّن ذُنُوبِكُمۡ ﴾ للتبعيض؛ أي يغفر لكم بعض ذنوبكم، فيكون ذلك احترازا في الوعد لأنهم لم يتحققوا تفصيل ما يغفر من الذنوب وما لا يغفر، إذ كانوا قد سمعوا بعض القرآن ولم يحيطوا بما فيه، ويجوز أن تكون زائدة للتوكيد علىٰ رأي جماعة ممن يرون زيادة من في الإثبات كما تزاد في النفي[1].

(١)التحرير والتنوير،ج٢٦/ ٥٢.

وجملة: ﴿ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ جاءت معطوفة علىٰ جملة ﴿يَغْفِرْ لَكُم﴾، والإجارة تزيد علىٰ المغفرة في الرتبة؛ لأن فيها معنىٰ الحماية، والأمان، والضمان؛ لأن يجركم معناها أن تكونوا في جواره، ومن كان في جوار الله الكريم لا يضام، ولا يجار عليه، والتعبير بالمغفرة، وعطف الإجارة عليها، وإسنادهما إلىٰ الله يعكس مدىٰ حرص هؤلاء النفر من الجن علىٰ هداية قومهم، ورغبتهم القوية في إسلام قومهم لله[1].

وقد تعدىٰ فعل الإجارة بمن الجارة ؛ للدلالة علىٰ أن الله –عزوجل– بيده كل شيء فهو الذي يمنع عباده المؤمنين من عذابه.

وتأتي جملة: ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ ﴾ متممة لمعنىٰ الكلام السابق، ومتفرعة عليه، فهي منها علىٰ الضد؛ لأنها بيان للوجه الذي لم يجب داعي الله، وقد كررت كلمة﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ تسجيلا علىٰ الذي لم يجب ضلالهم.

وقوله: ﴿ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ ليست هي جملة الشرط، وإنما هي دالة علىٰ الجواب؛ وهي كناية علىٰ مدي قدرة الله وقوته؛ لأنه لا يهرب منه أحد من أقطار الأرض، أو دخل في أعماقها، فليس هم ولا غيرهم بمعجز في الأرض سواء أجابوا داعي الله أو لم يجيبوه، وهذا المعنىٰ ليس مقيدا بالشرط الذي هو عدم الإجابة ، وجملة: ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ﴾ جاءت معطوفة علىٰ جملة ﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ ، وقد دلت هنا علىٰ أن من لم يجب داعي الله يبحث عن ولي يدفع عنه

(١)آل حم الجاثية والأحقاف دراسة في أسرار البيان،٥٧٧.

عذاب الله، ولكنه لم يجد نصير ينصره علىٰ الله ويحميه منه، فهو نفي أن يكون له سبيل إلىٰ النجاة بالاستعصام بمكان لا تبلغ إليه قدرة الله، ولا بالاحتماء بمن يستطيع حمايته من عقاب الله. وذكر هذا تعريض للمشركين.

واسم الإشارة في قوله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٣٢ ﴾ يرجع إلىٰ من لا يجب داعي الله، وفيه دلالة علىٰ بعد منزلتهم، وسموهم في الضلال المبين، مع ما في التعبير باسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾من تمييز المشار إليه أبلغ تمييز، وتحديده في ذهن السامع أتم تحديد؛ مما يعكس خطورة أمرهم، إذ إنهم صاروا منغمسين في ضلالهم، مخالطين له بعيدين تمام البعد عن الطريق المستقيم.

«ووصف الضلال المبين علىٰ لسان هذا النفر يعني أنه ضلال ظاهر؛ لأن وجوب إجابة الداعي تظاهرت عليه الأدلة، ولا يسع ذو إدراك أن ينكره، وأن من ولىٰ ظهره للحق الذي تظاهرت عليه الأدلة، وترك الهدي والطريق المستقيم، ليس وراءه ولا أمامه إلا الضلال المبين، وهذه الجملة شاملة لمعنىٰ ما قبلها ومضيفة إليه؛ لأن الضلال المبين الأظهر فيه أنه في الدنيا، لأن الآخرة ليست دار هدىٰ ولا ضلال؛ لأنها ليست دار تكليف وإنما الضلال المبين لمن سمع داعي الله ولم يجبه»[1].

(١) آل حم الجاثية والأحقاف دراسة في أسرار البيان، ص٥٨٠، ٥٨١.

**الموضع الثاني: في سورة الجن.**

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢ ﴾ سورة الجن، آية١، ٢.

**المقصد الأعظم لسورة الجن**

سورة «الجن» من السور المكية ، وتسمىٰ بسورة قُلْ أُوحِيَ ... [١]. ، وعدد آياتها ثمان وعشرون آية ، وقد بدأت ببيان استماع بعض من الجن القرآن من رسول الله- صلىٰ الله عليه وسلم- وأَنَّه قد أَعجبهم، وأَخذتهم قوة بلاغته، وجميل هدايته فدفعهم ذلك إِلىٰ الإِيمان به فور سماعهم له، وعاهدوا أَنفسهم أَلا يشركوا بالله أَحدًا، وأَنهم عظموا ربهم، وقدسوه، ونزهوه عن اتخاذ الصاحبة والولد.

وتعد السورة تعريضا بكفار مكة، فإنهم إذا كانوا قد أعرضوا عن دعوته، وعن إيمان ما نزل به، فإن الله صرف إليه نفرا من الجن آمنوا به.

«ومقصودها: إظهار شرف هذا النبي - صلىٰ الله عليه وسلم -، حيث لين له قلوب الجن، والإِنس، وغيرهم، فصار مالكًا لقلوب المجانس وغير، وذلك لعظمة هذا القرآن، ولطف ما له من عظيم الشّأن»[٢].

**علاقة سورة الجن بما قبلها سورة نوح**

سورة الجن كأنها من تمام سورة نوح لا تحاد القصد، فاتصالها بها واضح،« فإنه لما كان نوح -عليه الصلاة والسلام- أول رسول أرسله الله- تعالىٰ- إلىٰ المخالفين من أهل الأرض، وكان قومه عباد أوثان، وعصوه أشد العصيان مع أنه كان منهم نسبًا ولسانًا، وختمت سورته بدعائه عليهم، وكان نبينا - صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -خاتم النبيين، فهو آخر رسول بعثه الله –

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم،ج١٥/ ١٢٧.

(٢) مصاعد النظر للإشراف علىٰ مقاصد السور، ج٣/ ١٢٧.

تعالىٰ- إلىٰ أهل الأرض، وغيرهم من جميع الخلق، وكان قومه العرب قد وافقوا قوم نوح - عليه السلام- في أكثر أحوالهم عبادة الأوثان حتىٰ تلك الأوثان إما بأساميها أو بأعيانها علىٰ ما ورد في الأخبار، وفي عصيان رسولهم، واستضعاف أتباعه، واستهزائهم ابتدأت هذه بما كان من سهولة من سمع هذه الدعوة الخاتمة الجامعة من غير الجنس فضلاً عن الموافقين في الجنس مع قصر الزمان، وضعف الأعوان لجلالة هذا القرآن، فقال منبهاً له بالأمر علىٰ ما في هذا من عظيم القدر، مع الإشارة إلىٰ تبكيت العرب علىٰ التباطؤ عن الإجابة إلىٰ ما يعرفون من رشده بمعناه ونظمه، لكونه بلسانهم وكونهم من نوع الداعي وقبيله وأقرب الناس إليه {قل} أي يا محمد لقومك»[1].

**التحليل البلاغي**

بيت القصيد في كلتا الآيتين هو بيت القصيد في الآيات التي وردت في سورة الأحقاف، المعنىٰ والغرض فيهما متحدان ومتوافقان، وهو التعريض بالمشركين، حيث إنَّ دعوته بلغت إلىٰ جنس الجن، وإفهامهم فهم معان من القرآن الذي استمعوا للنبي-ﷺ- وفهم ما يدعو إليه من التوحيد والهدىٰ، وعلمهم بعظمة الله وتنزيهه عن الشريك والصاحبة والولد، فآيات الأحقاف هي بداية التقاء الجن بالنبي-ﷺ- بدليل ( وإذ صرفنا.....)،فهي إعلان عن إيمان الجن بالله فور السماع، وبيان لما قام به النفر من الجن بعد سماعهم القرآن، بأنهم لما قضي سماعهم ولوا إلىٰ قومهم منذرين ذكرت الزمن الذي يذكر النبي -ﷺ-بإكرام الله له، وعنايته به في أحوال الشدة التي تبلغ ما تبلغ مما كان يعانيه من قومه- صلوات الله وسلامه عليه-، وآيات الجن هي إعادة لذكر ما في الأحقاف، فهي إخبار وحكاية لما حدث من الجن عند

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، ج٢/ ٤٦١، ٤٦٢.

استماعهم للقرآن، ومن ثم فهي تأكيد علىٰ المعنىٰ نفسه، فالصورة صورة تكرار وإعادة ؛ لذا عنصر بناء الكلام في الآيتين متشابه إلىٰ حد كبير في اللفظ مع اختلاف طفيف في بعضها، فسورة الأحقاف بدأت الآية فيها بالظرف ﴿ إِذْ ﴾ إشارة إلىٰ الزمن الذي فتحت به، بينما بدأت آية الجن بفعل الأمر ﴿ قُلْ ﴾ الذي يشير إلىٰ أن ما سيذكر بعده حدث غريب، وأنه أمر جدير التنبه إليه؛ لأن ﴿قُلْ﴾ تقرع الأسماع، وتنشط الذاكرة؛ ولأن ما بعدها أمر ينبغي أن يتنبه إليه المخاطبون، وخاصة بالنسبة للمشركين الذين هم مظنة التكذيب بالقرآن كما يقتضيه سياق الآيات، الفعل صرف مسند إلىٰ ضمير الجلالة؛ لتتأكد رعاية الله لنبيه، ويتأكد اللطف الذي يتداركه الله به كلما أصابه ما يكره، بينما أتىٰ الفعل ﴿أُوحِيَ﴾ في سورة الجن المبني لما لم يسم فاعله مع العلم بالفاعل وهو الله ؛ للدلالة علىٰ أن النبي -ﷺ- عرف قول الجن، عن طريق الوحي الذي أنزل عليه، وهذا يشير أن النبي -ﷺ- ما قرأ علىٰ الجن، ولا رآهم بنفسه أبدا، وإنما أخبره الله باستماعهم إلىٰ تلاوته لا غير، الفعل (صرف ) متعدي بحرف الجر ﴿إِلَيَّ﴾ والفعل أوحي متعدي بحرف الجر إلىٰ للدلالة علىٰ أن استماع الجن للقرآن لم يكن إلا من رسول الله ؛ فالقضية خاص به وحده ، وفيه إشارة أن هذا المأمور بتبليغه أمر تلقاه النبي -ﷺ- من قبل ربه، وآية الأحقاف عبرت عن الاستماع بصيغة المضارع؛ لتتناسب دلالته مع زمن القصة، وبدأها مع ما يحمله من تجدد الاستماع واستحضار صورته بينما عبر عنه في سورة الجن بلفظ الماضي ﴿ٱسْتَمَعَ﴾؛ للدلالة علىٰ تحقق الأمر، وتوكيده مع ما فيه من دلالة علىٰ حرص هذا النفر من الجن علىٰ سماع القرآن بعناية، واهتمام، وسرور، ومفعول فعل الاستماع مذكور في سورة الأحقاف، فقال:

﴿يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾؛ تربية للفائدة، وتركيزا عليه؛ لأنه الغاية التي صرفوا من أجلها، وقد حذف في سورة الجن فقال: استمع نفر؛ للعلم به، والدلالة عليه، اكتفاء به في سورة الأحقاف، إذ القرآن يفسر بعضه بعضا ؛وقوله: ﴿ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ هو عين قوله – تعالىٰ- في سورة الجن ﴿نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ مع اختلاف موقع الإعراب، وهذا يؤكد أنهم جماعة واحدة من الجن سمعت القرآن، لا جماعتين، فكلمة ﴿ نَفَرٞ﴾التي في سورة الجن فاعل؛ لأنها مرفوعة، وكلمة ﴿نَفَرٗا﴾ التي وردت في الأحقاف مفعول به، لأنها منصوبة، ومجيئها في موضع الفاعل دل علىٰ رغبتهم، وحرصهم المؤكد علىٰ استماع القرآن الكريم من النبي-ﷺ- ، بينما موضع النصب يؤكد أنهم مدفوعون، وأن قلوبهم بيد الله يصرف من يشاء عن ما يشاء.

وقوله: ﴿نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ ﴾ جاءت كلمة ﴿نَفَرٞ﴾ نكرة؛ للإشارة إلىٰ أنهم نفر من كرام الجن، ومن الصادقين المخلصين لأقوامهم، وهم من الذين إذا عرفوا الحق لزموه، ثم سارعوا إلىٰ قومهم؛ ليأخذوا بأيديهم إلىٰ الخبر الذي سمعوه من رسوله-ﷺ-

وقد أكد الخبر بـ(إِنَّ) مكسورة الهمزة في سورة الأحقاف﴿إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا﴾، كما أكد في سورة الجن بـ(إِنَّ) مكسورة الهمزة – أيضا-﴿إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾ وقد جيء بهما لغرابة الخبر، وتقريره في النفوس، وتثبيته في القلوب؛ لأن جماعة الجن لم يعلموا من قبل بالقرآن،

ووراء التوكيد قوة اقتناعهم بمضمونه، وحفاوتهم، ووفرة نشاطهم في بلاغه.

والفاء في قوله: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا.... ﴾ تومئ إلىٰ "شدة استدعاء المقام لهذا القول، وأن داعيه كان أقوىٰ من أن يحمل المرء مؤنة الصبر عنه"[1]. وهي بإيماضتها السريعة، ولمحتها الخاطفة، مع ما تحمله من معاني السببية، والترتيب، والتعقيب، تعكس سرعة تأثر هذا النفر من الجن بما سمعوه من القرآن الذي قرأه النبي -ﷺ-، فما إن سمعوه حتىٰ أسرعوا إلىٰ قومهم دعاة إلىٰ الحق.

وقولهم: ﴿سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾ يدل علىٰ تأثرهم به تأثرًا شديدًا، وعلىٰ إعجابهم العظيم بنظمه المتقن، وأسلوبه الحكيم، ومعانيه البديعة، ولذا أعلنوا إيمانهم به بدون تردد، كما يشعر بذلك التعبير بالفاء في قوله: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ... ۖ﴾، حيث وصفوه بكونه عجيبًا بديعًا مباينًا لسائر الكتب في حسن نظمه، وصحة معانيه، ووصف القرآن بالعجب وصف بالمصدر للمبالغة في قوة المعنىٰ، أي يعجب منه، ومعنىٰ ذلك أنه بديع فائق في مفاده، قال النسفي: والعجب ما يكون خارجا عن العادة، مما يبين أن القرآن خارج عن طوق البشر.[2]

(١) فقه بيان النبوة منهجًا وحركة : د/ محمود توفيق سعد، مطبعة الأمانة. ط: الأولىٰ ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م . صـ٣١.

(٢)مدارك التنزيل وحقائق التأويل، لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (المتوفىٰ: ٧١٠هـ)حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م،ج٥/ ٥٤٩.

ويؤكد مدىٰ تأثرهم بالقرآن قولهم بعد آيات ﴿ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ....﴾

فقد وسموه بالهدىٰ؛ لأنه دلهم علىٰ الطريق الصحيح بعد أن كانوا في ضلال مبين وفي تعريف الكتاب العزيز بالهدىٰ دلالة علىٰ أنه بلغ الكمال في الهداية.

وقوله – تعالىٰ –: ﴿ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ﴾ هو معنىٰ قوله ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ ﴾ ؛ الفعل يهدي في الآيتين متعدي بحرف الجر ﴿إِلَى ﴾ ؛ لبيان الغاية التي يحققها القرآن في النفوس، إلا أن سورة الأحقاف زادت ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ وهنا يطرح سؤال: هل الحق شيء، والطريق المستقيم شيء؟ لا، وإنما الحق هو الطريق المستقيم، والطريق المستقيم هو الحق فقوله تعالىٰ: ﴿ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ مؤكد لقوله: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ﴾ ؛ لأن الهداية إلىٰ الحق تعني الهداية إلىٰ صراط مستقيم، وإن كان يمكن أن يراد بالطريق المستقيم الجانب العملي، والسلوكي لمن آمن، فالنصف الأول يشير إلىٰ جانب الاعتقاد، والنصف الثاني يشير إلىٰ جانب العمل[1] ويلاحظ أن بين الحق والرشد ترابطًا وتلازمًا، فحينما يوجد أحدهما يوجد الآخر، فكلاهما من واد واحد، وبقراءة سياق سورة الأحقاف جليا يتضح أن كلمة ﴿ ٱلْحَقِّ ﴾ تتناسب مع سياق السورة؛ لأنها دعوة للمشركين إلىٰ اتباع الحق، وترك ما هم فيه من باطل، وهو عبادة الأصنام، ولعل التعبير بالرشد في سورة الجن يوحي بأن الجن قبل استماع القرآن كانوا في ضلال

(١) آل حم، الجاثية، الأحقاف دراسة في أسرار البيان،ص٥٦٥.

وشرك، وكانوا في حيرة وتخبط، فلما سمعوا القرآن أيقنوا أنه سبيل الرشاد، كما أن الحق عام والرشد خاص، فالرشد هو طريق الحق ودليله، والطريق الموصل إليه؛ لأن الرشد هو معرفة الصواب ، ولا شك أن معرفة الصواب هو عين الحق، وقد أفاض الدكتور فاضل السامرائي في التفريق بين كلمتي الحق والرشد، فقال: «الحق أعمّ من الرُشد يُخبر به عن الإنسان وغيره، ومن ناحية أخرىٰ الرُشد خاص بالعاقل، إذن الرشد قسم من الحق، وليس الحق كله، كل رشد هو حق، لكن ليس حق رشدًا باعتبار الحق أعمّ، ثم قال بعد ذلك: الكلام عن القرآن متسع في الأحقاف، وهذا جزء من آية في سورة الجن، في الأحقاف الكلام متسع إذن تناسب كلمة الحق التي هي أوسع من الرشد لما كان الكلام متسعا أتىٰ بالكلمة التي هي مناسبة، والتي هي الحق، هذا من ناحية، من ناحية أخرىٰ كلمة الحق نفسها وردت في سورة الأحقاف ست مرات، ولم ترد في سورة الجن ، وكلمتا الرُشد والرَشد وردتا في سورة الجن أربع مرات، ولم ترد في سورة الأحقاف، إذن من هذه الناحية صارت مناسبة، يبقىٰ سبب الاختلاف: ما ذكره في سورة الأحقاف عن الجن أوسع وأشمل مما ذكره في سورة الجن فعمم في الأحقاف ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ﴾ ،ثم ذكر أمورًا في القرآن كثيرة فصّل فيها»[1].

وقوله: ﴿ فَـَٔامَنَّا ﴾ جاء بالفاء الدالة علىٰ سرعة الاستجابة، تفيد الترتيب والتعقيب، يعني سمعنا فآمنا ، والفعل الماضي﴿ آمنا﴾ يدل بذاته علىٰ التحقق، والتثبت، والقطع بوقوع الحدث.

(١)لمسات بيانية لسور القرآن الكريم، د/ فاضل صالح السامرائي، بدون طبعة، ص٢٤، ٢٥.

وجملة: ﴿ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ ، جاءت معطوفة علىٰ جملة ﴿ فَـَٔامَنَّا ﴾ ؛ لاتفاقهما في الخبرية معنىٰ، وقد سوغ العطف بين الجملتين ما بينهما من ارتباط وثيق، فالإيمان بالقرآن هو الإيمان بالله؛ لأنه كلام الله، وهذا يقتضي عدم إشراكهم به؛ لذا جاء النفي بـ﴿ لن ﴾ تأبيدًا للنفي في المستقبل، وتأكيدًا علىٰ استحكام الإيمان في قلوبهم، وكلمة ﴿ أَحَدًا ﴾ نكرة وقعت في سياق النفي لتعميم الحكم، وهذا يقتضي أنهم كانوا مشركين، ولذلك أكدوا نفي الإشراك بحرف التأبيد، فكما أكد خبرهم عن القرآن والثناء عليه بـ ﴿ إنَّ ﴾ أكد خبرهم عن إقلاعهم عن الإشراك بـ ﴿لن﴾[1].

(١) التحرير والتنوير،ج٢٩/ ٢٢١.

## الخاتمة

الحمد الله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ أشرف المرسلين، سيدنا محمد النبي الأمي العربي الأمين.

وبعد،،،،

فبعد أن عشت في رحاب تلك البساتين الندية، والنفحات الإلهية، مع كتاب ربنا، من خلال الآيات المباركات التي وصفت أحوال استماع المؤمنين للقرآن الكريم مقاما ودراسة نظمية، يمكن أن نرصد بعض النتائج التي أسفر عنها البحث، وهي تتمثل فيما يأتي :

**أولا:** وجدت أن الآيات التي تحدثت عن وصف أحوال المؤمنين في القرآن عند استماعهم بينت أن المؤمنين الذين استمعوا القرآن ينقسمون إلىٰ ثلاث أمم الأولىٰ تمثلت في أمة النبي-ﷺ- ، والثانية تمثلت في المؤمنين من اليهود والنصارىٰ، والأمة الثالثة تمثلت في الجن.

**ثانيا:** بلغ عدد الآيات التي وصفت أحوال استماع المؤمنين للقرآن الكريم إحدىٰ عشرة آية بدت فيها الجوانب النفسية المختلفة للمؤمنين التي يشعرون بها عند سماعهم آيات القرآن، فقد انعكست علىٰ صفحات وجوههم، وأجسادهم وجلودهم، وقلوبهم متمثلة في فيضان الدمع من أعينهم تارة، وزيادة الإيمان في قلوبهم تارة، ووجل قلوبهم تارة ، والخرور لله سجدا بأجسادهم تارة ، والبكاء تارة ، وقشعريرة جلودهم تارة ، والاستجابة لله ، والانصات إليه بعناية واهتمام، ثم الإيمان به فور سماعه.

**ثالثا:** بنيت معظم تلك الآيات علىٰ أسلوب الشرط، وذلك لما فيه من إثارة ، وتهييج وإلهاب كما أن صياغة المعاني من خلاله أكثر إحكاما وأشد تأكيدا ، وذلك لطبيعة أسلوب الشرط وما فيه من تلازم بين الشرط والجواب.

رابعا: كانت "إذا" الشرطية في معظم الآيات التي وصفت أحوال استماع المؤمنين هي الأوفر نصيبا، وحضورا من بين أدوات الشرط ، ولعل ذلك يرجع إلىٰ تحقق شرطها وجوابها، فهي لا تأتي إلا في الشرط المجزوم بوقوعه، وقد دخلت علىٰ فعل السماع في قوله: ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ ..... ﴿٨٣﴾ ﴾ ، سورة المائدة: آية٨٣، ودخلت علىٰ فعل الذكر في أربعة مواضع هي علىٰ الترتيب، الأول في سورة الأنفال في قوله تعالىٰ ،﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ سورة الأنفال، آية٢، والثاني في سورة الحج في قوله –تعالىٰ–﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ ﴿٣٥﴾ ﴾ سورة الحج آية: ٣٥ ،والثالث في سورة الفرقان في قوله– تعالىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ لَمۡ يَخِرُّواْ عَلَيۡهَا صُمّٗا وَعُمۡيَانٗا ﴿٧٣﴾ ﴾سورة الفرقان آية :٧٣، والرابع قوله– تعالىٰ– ﴿ إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا

﴿ وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ۩ ١٥ ﴾ سورة السجدة، آية ١٥، يلحظ في الآيات السابقة أن فعل الذكر جاء بلفظ الماضي؛ لأنه لما كان الأصل في استعمال(إذا) أن يكون مع الشرط المجزوم به جاء فعل الشرط بلفظ الماضي فضلا عن تعلقها بالمؤمنين؛ ليرتب عليها الأجزية المذكورة في الآيات من وجل القلب، وزيادة الإيمان، والخرور لله سجدا، وقد دخلت(إذا) علىٰ فعل التلاوة – فيما يخص المؤمنين– ماضيا ومضارعا، فدخولها علىٰ فعل التلاوة ماضيا أتىٰ في موضع واحد في قوله– تعالىٰ– ﴿ ...وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ﴾ ولعل السر في ذلك– والله أعلم– لتتناسب ماضوية الفعل مع ماضوية الذكر في الشرط السابق في أول الآية إشعار بتحقق الذكر والتلاوة معا، وأنهما أمران ثابتان في حياة هؤلاء المؤمنين، فيثبت بمقتضىٰ ترتب الجزاء علىٰ الشرط إثبات وجلهم لله، ودخولها علىٰ فعل التلاوة مضارعا أتىٰ في ثلاثة مواضع، الأول قوله –تعالىٰ–﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا ۩ ٥٨ ﴾والثاني قوله– تعالى–﴿ قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ١٠٧ ﴾والثالث قوله– تعالىٰ–﴿ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ٥٣ ﴾ والظاهر –والله أعلم– يتضح

أن مجيء الشرط معها مضارعا هو إفادة معنىٰ التجدد الذي هو مفاد الفعل المضارع، ففي آية سورة مريم أن المناسب للغرض هو الإشعار بتحقق الوقوع وأن من شأن الثابت في حياتهم فناسبه المجيء بلفظ الماضي لكون السجود في حياة الأنبياء من الأمور الثابتة، وعندما كان الغرض الإشعار بتجدد التلاوة وتجدد السجود جي بالشرط والجزاء مضارعين كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾﴾، وذلك يناسب ما يتجلىٰ لأهل العلم من آيات علىٰ عظمة الله عند التلاوة التي تتجدد عليهم، فيسارعون إلىٰ السجود إعظاما لما وجدوه موافقا لعلومهم وعقولهم، فالمضارع أشد إيفاء بتصوير هذه الحركة الناشئة عن التلاوة بما فيها من صور خرورهم ساجدين لله عندما يسمعون القرآن[1].

**خامسا:** افتتحت بعض تلك الآيات بأسلوب القصر بـ(إنما)؛ للدلالة علىٰ أن المعاني التي دخلت عليها مأنوسة قريبة من النفوس؛ كما في آية سورة الأنفال في قوله- تعالىٰ-﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾﴾ ، والآية بما فيها من عتاب للمؤمنين، فإن (إنما) جاءت لترسم ملامحهم ظاهرا وباطنا متطلعين إلىٰ رحاب أقوىٰ بحساسية إيمانية

(١) أسرار تقييد المسند بأدوات الشرط(إن وإذا ولو) ومواقعه في القرآن الكريم، أ.د/ محمود موسىٰ إبراهيم حمدان، الطبعة الأولىٰ ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م،ص٣٤٣.

تهتز قلوبهم وجلة كلما ذكر اسم الله وتزداد إيمانا كلما سمعت آياته متوكلة علىٰ ربها مصلية منفقة.

وقد أفادت (إنما) التعريض في قوله: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ ﴾ فليس المقصود من إنما المعنىٰ المباشر لما دخلت عليه فقط، لأنه من البداهات التي لا يحتاج أن ينبه إليها، وإنما المقصود أيضا التعريض بالكفار علىٰ كفرهم بآيات الله، وأنهم لا ينفعون المؤمنين بإيمانهم، ولا يغيظونهم بتماديهم في الكفر.

**سادسا:** جاء المجاز العقلي في بعض مقامات تلك الآيات دالا علىٰ شدة تعلق المؤمنين بالقرآن استماعا وتلاوة وتدبرا، كما في إسناد زيادة الإيمان إلىٰ الآيات ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾ وإسناد الزيادة إلىٰ القرآن في قوله تعالىٰ ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾ ﴾ وذلك لما جاء فيه من البينات والهدىٰ التي من شأنها أن تقبل النفس المؤمنة عليها، وفي هذا إلىٰ إشارة إلىٰ عظمة القرآن، كما جاء دالا علىٰ أثر القرآن علىٰ قلوب المؤمنين، ونفعه لهم في الآجل والعاجل.

**سابعا** : كان للأفعال المضارعة في أغلب المقامات التي تحدثت عن استماع المؤمنين للقرآن الكريم ، دورها البارز في تصوير ردود أفعالهم وما

يعتريهم من مشاعر ،فالفعل تفيض علىٰ سبيل المثال في قوله تعالىٰ ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ يصور غزارة نزول الدمع من أعين النصارىٰ نتيجة لإدراكهم طريق الصواب بعدما سمعوا كلام الله تعالىٰ.

**ثامنا:** عكس فعل الأمر(أنصتوا) في كلام الجن عند استماعهم للقرآن ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ رد فعلهم ودل علىٰ تأثرهم بمعانيه، وقد خرج فعل الأمر هنا إلىٰ معنىٰ الحض والحث علىٰ الإنصات لتلاوة الآيات التي قرئت عليهم من نبينا محمد- صلىٰ الله عليه وسلم-

وقد اعتمد الجن في إقناع قومهم لإجابة داعي الله- وهو الرسول – صلىٰ الله عليه وسلم- علىٰ النداء الظاهر في قوله﴿ قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٣٠﴾ ﴾والنداء في قوله تعالىٰ: ﴿ يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣١﴾ ﴾

كما اعتمد الجن في عميلة الإقناع علىٰ التوكيد بـ(إنَّ) وقد برز في الموضعين اللذين تحدثا عن استماع الجن لكلام الله- تعالىٰ- فقد قالوا في

المقام الأول: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾، وقالوا في الموضع الثاني: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١﴾ ولعل ذلك استعمال التوكيد يرجع إلىٰ غرابة الخبر والاهتمام به، وجعل إخوانهم من الجن يقبلون علىٰ إجابة داعي الله،والإيمان بما جاء به من عندالله.

وبعد،،،

فهذا جهدي أقدمه بين يديك أيها القارئ الكريم أستاذا ومعلما وطالبا راجيا من الله ـ تعالىٰ ـ أن ينال رضاه أولا، ورضاكم ثانيا، وطوبىٰ لمن أهدىٰ إلي عيوبي، ويعلم الله بما بذلته فيه من جهد، وما عانيته من مشقة، لكنه جهد المحبين، وعناء العاشقين لخدمة كتاب ربنا، نسأل الله الإخلاص في القول والعمل وأن يجعل هذا العمل المتواضع في ميزان حسناتنا وحسنات آبائنا وأمهاتنا، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

# أولا: فهرس المصادر والمراجع

- الإتقان في علوم القرآن، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفىٰ: ٩١١هـ)تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ .

- إرشاد العقل السليم إلىٰ مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفىٰ (المتوفىٰ: ٩٨٢هـ)،الناشر: دار العربي – بيروت.

- أسباب النزول، تأليف : أبي الحسن علي بن أحمد النيسابوري، الناشر : مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع، بدون تاريخ.

- أسرار الفصل والوصل في البلاغة القرآنية :د/ صبّاح دراز. مطبعة : الأمانة. ط: الأولىٰ ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.

- أسرار تقييد المسند بأدوات الشرط(إن وإذا ولو) ومواقعه في القرآن الكريم، أ.د/ محمود موسىٰ إبراهيم حمدان، الطبعة الأولىٰ ١٤٣٢هـــ، ٢٠١١م.

- إعراب القرآن وبيانه، لمحيي الدين بن أحمد مصطفىٰ درويش ،الناشر: دار الإرشاد للشئون الجامعية – حمص – سورية ، ( دار ابن كثير – دمشق – بيروت)، الطبعة : الرابعة ، ١٤١٥ هـ.

- آل حم الجاثية والأحقاف دراسة في أسرار البيان أ. د محمد محمد أبو موسىٰ ، مكتبة وهبة، الطبعة الأولىٰ ١٤٣٢، ٢٠١١م.

- -التحرير والتنوير «تحرير المعنىٰ السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفىٰ : ١٣٩٣هـ)، الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس سنة النشر: ١٩٨٤ هـ.

- -الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم وسننه وأيامه، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة ، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٢هـ.

- -الجامع لأحكام القرآن ،لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفىٰ: ٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م.

- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفىٰ: ٥٤٢هـ)تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، **الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ.**

- المنار لمحمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن ملا علي خليفة القلموني الحسيني (المتوفىٰ: ١٣٥٤هـ)،الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر: ١٩٩٠ م.

- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، لناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفىٰ: ٦٨٥هـ)،تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولىٰ - ١٤١٨ هـ.

- الإيضاح في علوم البلاغة الثلاثة المعاني والبيان والبديع، للخطيب القزويني، طبعة دار الكتب العلمية، الطبعة الأولىٰ،٢٠٠٣م، ١٤٢٤هـ.

- البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفىٰ: ٧٤٥هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل، الناشر: دار الفكر – بيروت، الطبعة: ١٤٢٠ هـ.

- البرهان في علوم القرآن : للزركشي : جـ٤/ ٢٠٠ .ت : محمد أبو الفضل إبراهيم – مكتبة دار التراث ـ بالقاهرة – بدون .

- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة ـ الشيخ عبد المتعال الصعيدىٰ ـ مكتبة الآداب ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م .

- التحرير والتنوير، المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفىٰ: ١٣٩٣هـ)الناشر: الدار التونسية للنشر – تونس ، سنة النشر: ١٩٨٤ هـ .

- –تفسير المراغي لأحمد بن مصطفىٰ المراغي (المتوفىٰ: ١٣٧١هـ)،الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفىٰ البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة: الأولىٰ، ١٣٦٥ هـ – ١٩٤٦ م.

- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، : المؤلف :د وهبة بن مصطفىٰ الزحيلي، الناشر : دار الفكر المعاصر – دمشق، الطبعة : الثانية ، ١٤١٨ هـ.

- التفسير الوسيط للزحيلي : د وهبة بن مصطفىٰ الزحيلي الناشر: دار الفكر – دمشق الطبعة : الأولىٰ – ١٤٢٢ هـ.

- التفسير الوسيط للقرآن الكريم أ.د: محمد سيد طنطاوي، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة، الطبعة: الأولىٰ، ١٩٩٧م.

- التفسير الوسيط للقرآن الكريم، لمجموعة من العلماء بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، الناشر: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، الطبعة: الأولىٰ، (١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣ م) – (١٤١٤ هـ = ١٩٩٣ م).

- –تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفىٰ: ١٣٧٦هـ)تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق ، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولىٰ ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠ م.

- التيسير في أحاديث التفسير، المؤلف: محمد المكي الناصري (المتوفىٰ: ١٤١٤هـ)،الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

- جامع البيان في تأويل القرآن، لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفىٰ: ٣١٠هـ)،تحقيق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري، لمحمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق : د. مصطفىٰ ديب البغا أستاذ الحديث وعلومه في كلية الشريعة – جامعة دمشق الناشر : دار ابن كثير ، اليمامة – بيروت الطبعة الثالثة ، ١٤٠٧ - ١٩٨٧،

- الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفىٰ : ٦٧١هـ)،تحقيق : أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر : دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة : الثانية ، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م،.

- حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، للشيخ العلامة محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي، إشراف ومراجعة: الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي، الناشر: دار طوق النجاة، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولىٰ، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

- خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني، المؤلف: محمد محمد أبو موسىٰ، الناشر: مكتبة وهبة، الطبعة: السابعة،١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.

- دلالات التراكيب، دراسة بلاغية، د/ محمد أبو موسىٰ، مكتبة وهبة، ط: الرابعة١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.

- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفىٰ: ١٢٧٠هـ)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٥ هـ.

- الزمر–محمد وعلاقتهما بال حم دراسة في أسرار البيان' أ.د/ محمد محمد أبو موسىٰ، مكتبة وهبة، الطبعة الأولىٰ، ١٤٣٣هـ،٢٠١٢م.

- زهرة التفاسير، لمحمد بن أحمد بن مصطفىٰ بن أحمد المعروف بأبي زهرة (المتوفىٰ: ١٣٩٤هـ)،دار النشر: دار الفكر العربي.

- –سنن النسائي الكبرىٰ: لأحمد بن شعيب أبو عبد الرحمن النسائي، تحقيق : د.عبد الغفار سليمان البنداري ، سيد كسروي حسن، الناشر : دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولىٰ ، ١٤١١ – ١٩٩١.

- شرح أحاديث من صحيح البخارىٰ . أد / محمد محمد أبوموسىٰ – مكتبة وهبة – ط : الأولىٰ ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م .

- الصبغ البديعي :د/ أحمد موسىٰ .ص٤٧١ .دار الكتاب العربي– بيروت . طبعة ١٣٨٨هـ– ١٩٦٩م .

- صحيح مسلم لمسلم بن الحجاج أبي الحسين القشيري النيسابوري، الناشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت، تحقيق : محمد فؤاد عبد الباقي.

- علاقة المطالع بالمقاصد في القرآن الكريم، دراسة بلاغية– نظرية– تطبيقية، أ.د/ إبراهيم صلاح الهدهد، مكتبة الإيمان بالقاهرة، الطبعة الأولىٰ ١٤٣٢هـ، ٢٠١١م.

- الفروق اللغوية، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيىٰ بن مهران العسكري (المتوفىٰ: نحو ٣٩٥هـ)تحقيق: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ «قم»، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٢هـ.

- فقه بيان النبوة منهجًا وحركة : د/ محمود توفيق سعد، مطبعة الأمانة. ط: الأولىٰ ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م .

- -في ظلال القرآن: لسيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفىٰ: ١٣٨٥هـ)،الناشر: دار الشروق - بيروت- القاهرة، الطبعة: السابعة عشر - ١٤١٢ هـ..

- قراءة في الأدب القديم، أ. د/ محمد محمد أبو موسىٰ، مكتبة وهبة، الطبعة الثالثة، ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.

- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفىٰ: ٥٣٨هـ)الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٠٧ هـ.

- لسان العرب: لابن منظور الأنصاري الإفريقي (المتوفىٰ: ٧١١هـ)الناشر: دار صادر – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ.

- لمسات بيانية لسور القرآن الكريم، د/ فاضل صالح السامرائي، بدون طبعة.

- مختار الصحاح، لزين الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفىٰ: ٦٦٦هـ)، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

- مدارك التنزيل وحقائق التأويل، لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (المتوفىٰ: ٧١٠هـ)حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة: الأولىٰ، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م.

- المستدرك علىٰ الصحيحين، لأبي عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف

بابن البيع (المتوفىٰ: ٤٠٥هـ)،تحقيق: مصطفىٰ عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولىٰ، ١٤١١ – ١٩٩٠.

- مَصَاعِدُ النَّظَرِ للإِشْرَافِ عَلَىٰ مَقَاصِدِ السُّوَرِ، ويُسَمَّىٰ: "المَقْصِدُ الأَسْمَىٰ في مُطَابَقَةِ اسْمِ كُلِّ سُورَةٍ لِلمُسَمَّىٰ"، لإبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفىٰ: ٨٨٥هـ) دار النشر: مكتبة المعارف – الرياض، الطبعة: الأولىٰ ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٧ م.

- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، لأحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، لأبي العباس (المتوفىٰ: نحو ٧٧٠هـ)الناشر: المكتبة العلمية – بيروت.

- المصنف لأبي بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (المتوفىٰ: ٢١١هـ)،تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي لناشر: المجلس العلمي- الهند، الطب الثانية ١٤٠٣هـ، ج٣/ ٣٧٣.

- -معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي، لمحيي السنة، أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفىٰ: ٥١٠هـ)،حققه وخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة: الرابعة، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م.

- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لعبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن يوسف، أبي محمد، جمال الدين، ابن هشام (المتوفىٰ: ٧٦١هـ) تحقيق: د. مازن المبارك / محمد علي حمد الله، الناشر: دار الفكر – دمشق، الطبعة: السادسة، ١٩٨٥،٢٩١.

- مفاتيح الغيب = التفسير الكبير، لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفىٰ: ٦٠٦هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ.

- مقاييس اللغة لأبي الحسين أحمد بن فارِس بن زكَرِيّا، تحقيق : عبد السَّلام محمد هَارُون الناشر : اتحاد الكتاب العرب، الطبعة : ١٤٢٣ هـ = ٢٠٠٢م.

- من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم، أ. د/ محمد الأمين الخضري، الطبعة الثانية مكتبة وهبة،١٤٣٧هـــ،٢٠١٥م.

- النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، د/ محمد بن عبد الله دراز (المتوفى : ١٣٧٧هـ)الناشر: دار القلم للنشر والتوزيع، الطبعة : طبعة مزيدة ومحققة ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لإبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ)، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة،.

- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)،تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار النشر: دار القلم ، الدار الشامية – دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ.

## ثانيا: فهرس الموضوعات.


| الموضوع | الصفحة |
|---|---|
| المقدمة | ١٥١ |
| التمهيد | ١٥٥ |
| المقام الأول : فيض العين من الدمع | ١٦٢ |
| المقام الثاني: وجل القلب وزيادة الإيمان | ١٧٩ |
| المقام الثالث: السجود تعظيما لله والبكاء من خشيته والخشوع له | ١٩٣ |
| المقام الرابع: تواضع المؤمنين لربهم، وتعظيمهم لحرمات الله وشعائره. | ٢١٨ |
| المقام الخامس: استماع المؤمنين للقرآن الكريم بآذان واعية، وعيون مبصرة راعية | ٢٢٤ |
| المقام السادس: الحديث عن استماع المؤمنين من أهل الكتاب. | ٢٣٠ |
| المقام السابع: الثناء علىٰ المؤمنين، والتعريض بالمشركين. | ٢٤٢ |
| المقام الثامن: القشعريرة والليونة عند الاستماع. | ٢٥١ |
| المقام التاسع: موقف الجن من استماع القرآن | ٢٦٤ |
| الخاتمة | ٢٨٩ |
| فهرس المصادر والمراجع | ٢٩٦ |
| فهرس الموضوعات | ٣٠٤ |